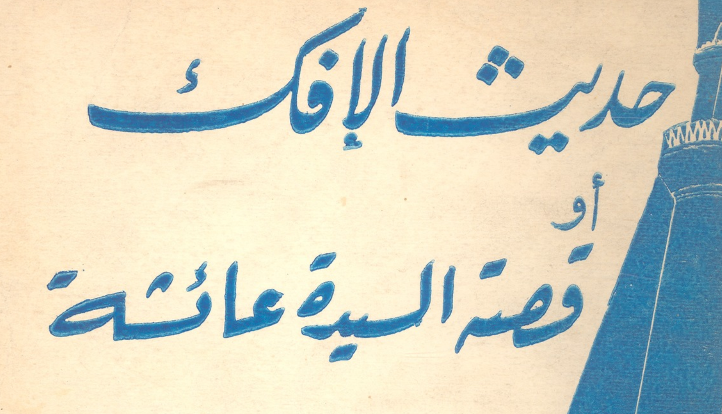


حديث الإفك

أو

قصة السيدة عائشة

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

نصر الله خليفة

حديث الافك

أو

قصة السيدة عائشة

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة
فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا
والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

نصر الله خليفة

مقدمة

ونبذة عن البيئة التى عاشت فيها السيدة عائشة
رضى الله عنها وعن الظروف التى أحاطت بها

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالهدى بشيراً ونذيراً وداعياً للحق باذن الله تعالى ، فبدد الظلمات وتقدم صحبه والتابعون من بعده مزهوين بايمانهم ليتصدروا العالم ويحرروا العقول من ربقة الشرك والضلال فى بقاع الأرض . واجتثوا الشر من قواعده حيث حلوا فى سائر الأرجاء من حدود الصين شرقا إلى بحر الظلمات غربا ، ذلكم كان عهد العزة والتحرر وتبعته عهود ، وخرج محمد صلى الله عليه وسلم ومن سلك سبيله وتحرروا من الظلام إلى النور ومن الانزواء إلى الصدارة فقادوا العالم وأوغلوا فيه ونشروا الدين والحضارة .

وزواج النبي محمد صلى الله عليه وسلم من أمهات المؤمنين جميعهن كان بايحاء من الله تعالى . ولحكم سماوية عالية أثبتتها الحوادث بعد ذلك . ولقد أعطاه الله سبحانه الحق وحده فى أن يتزوج بعدد من النساء لم يسمح به لغيره من المسلمين كما قال تعالى :

« يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن

وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك . وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبي أن أراد أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » . إذاً فقد أباح الله لرسوله ما لم يبح لغيره من سائر المؤمنين ، إذ قال : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألا تعدلوا »

فى هذا أباح الله سبحانه لسائر المسلمين الزواج بأربع بشرط القدرة والعدل . ونبه أن يكون الانسان بصيراً بنفسه فان خاف ألا يعدل بين الأربعة ان استطاع أن يجمع بينهن فوجب أن يعاشر زوجة واحدة هو أقسط له وأقرب أن يعدل لمن يعوله .. ويوضح الله سبحانه ذلك ويبين لرسوله فى الآيات السابقة أنه أعطاه الحق فى أن يتزوج بعدد من النساء اللاتى أباحهن له ولم يسمح بمثل ذلك لغيره من المسلمين فقال :

« يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى أتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج . وكان الله غفوراً رحيما » .

وقد كانت تحوط النبي ظروف خاصة دعته إلى الزواج من أمهات المؤمنين اللاتى أوحى إليه بالزواج منهن لصلة الزواج الوثق بالدعوة التى كانت هذه الزيجات أحيانا من أسباب نجاحها وانتشارها . .

ولما تم للرسول ما أراده الله من حكمة تعدد الزوجات نزل قوله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا » .

وفى هذا القول ما يؤكد أن الله سبحانه أراد هذه الزيجات دون غيرها لحكمة علمها الله العليم الخبـــير . ومن حكم تعدد الزيجات للنبي صلى الله عليه وسلم وهو فى سن أكثر من الخمسين وبعد الهجرة إلى المدينة فى العصر الذى شاءت حكمة الله فيه أن ينشيء دولة جديدة قاعدتها المدينة . وفى هذا العصر الذى نشبت فيه كثير من المعـارك ، وغزا فيه الرسول عليه السلام عدة غزوات أشدها وأقساها . بدر وأحد والخندق وبنى المصطلق . فكان لهذه الزيجات مرمى سياسى وآخر اجتماعى ، فالسياسى توثيق الصلة بين القبائل وكبار القوم وجذبهم لاعتناق الدين والمهادنة وايقاف الحروب مثل ماحدث عند الزواج بجويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي بن أحطب ورملة بنت أبى سفيان . والناحية الاجتماعية التى أراد الله ورسوله فيها القضاء على الفوارق الاجتماعية

وعدم الانتساب بغير حق وتوريث من ليس له حق وذلك فى حادث زواج النبي عليه السلام بزينب بنت جحش بعد زواجها من زيد بن حارثة . ومنها ماكان له مساس كبير بالدين لم تألفه القبائل والجزيرة العربية من قبل .

زواج محمد عليه الصـــلاة والسلام

تزوج محمد النبي الرجل ، لأنه بشر يمشى فى الأسواق ويأكل الطعام ويتعامل مع سائر الناس بمثل ما يتعاملون به إلا مايشينه أو يخالف محاسن الأخلاق وعظائم الأمور التى اختص بها من اختاره الله واصطفاه ليكون نبياً ورسولا وهادياً ومبشراً ونذيراً

تزوج النبى محمد صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة بنت خويلد ، وكانت قد تزوجت قبله مرتين ، تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومى وورثت عنهما بعد وفاتهما مالا كثيراً فوق ما ورثته عن أبيها واشتغلت بالتجارة فى مالها ، واستخدمت محمداً الشاب فى تجارتها إلى الشام فربح لها ربحاً وفيراً وزاد مالها زيادة لم تعهدها من قبل ووجدت فيه الأمانة وعزة النفس ومحاسن الخلق فأحبته .وشغفت به ، واختارته لنفسها وتمنت أن يكون زوجها ، وهى الأرملة التى تعيش وحدها ، وقد رغبت فى الزواج على غير ما يألفه العرب من قبل فى عادات الزواج ، ذلك أن النساء لا يخطبن ولا يخترن

لهن أزواجا ، ولكن هذه السيدة استطاعت التغلب على هذه العادة وكانت مقدسة عند قومها وقد خصها الله بسلامة الفطرة والفطنة وقوة المعرفة ومزيد الهمة والكرامة . ولما تمكن فى فؤادها الشوق الشريف للزواج بمحمد الشاب القرشى الأمين بعثت إليه بصديقتها نفيسة أخت يعلى بن أمية . وكلمته فى رغبة السيدة خديجة وقبولها أن يكون زوجها ولا تطلب منه صداقا.

وقبل محمد وهو شاب فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين ، وتمت خطبتها فى حضور عمه حمزة بن عبد المطلب وصارت زوجته وملكته مالها يتصرف فيه كيف يشاء .

حادث الاســــراء والمعراج

حدث حادث الاسراء والمعراج ليلة السابع والعشرين من رجب وقبل الهجرة بسنتين وبعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها . وكان ببيت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة سودة بنت زمعة زوجته الأولى بعد خديجة رضى الله عنها .

وفى هذه الليلة أسرى بمحمد عليه السلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومنه أعرج به إلى السموات العلا . وهذه مكانة اختص بها النبي محمد عليه السلام وكلمه الله سبحانه فى المكان الذى شاء أن يرقى إليه النبي ويفرض فيه عليه وعلى أمته خمس صلوات فى اليوم والليلة وأعلمه بأشياء كثيرة من عالم الغيب ، حدث بها النبي عليه السلام فى الصباح وأعلنها لقومه ، فنهم من صدق ومنهم من كفر ومنهم من ازداد كفراً .

وتقول سودة بنت زمعة أنها صحت ذات صباح لتسمع بحديث الاسراء يقصه رسول الله صلى الله عليه وسلم على : « أم هانىء » هند بنت عمه أبى طالب وهو يقول :

ـ يا أم هانىء : لقد صليت معكم العشاء الآخره . كما رأيت بهذا الوادى . ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترين .

وكان محمد وصحبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام يصلون ركعتين فى الغداة وركعتين فى العشى قبل فرض الصلوات الخمس على دين الخليل ابراهيم وإذا بأم هانىء تقول له :

- يا نبى . الله لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك و يؤذوك .

وفى إصرار المؤمن أجابها محمد صلى الله عليه وسلم :

- والله لأحـــدثنهموا ! !

ذلك لأنه لم يكن يستطيع أن ينكر أو أن يكتم حديث الاسراء والمعراج لأنهما جزء من رسالته والبلاغ بدعوته . فكان أن خرج إلى الناس حاملا النبأ متحدثاً به .

واستمعت قريش الى حديث الاسراء والمعراج ، حتى أن سألوه أن يصف لهم بيت المقدس وهم يعرفون أنه لم يره من قبل . وان كان ذهب إلى الشام للتجارة بمال السيدة خديجة مرة أو مرتين ، لكنه لم يقصد بيت المقدس البتة . فوصفه لهم وصفاً دقيقاً كأنه رآه مرات ، ويحدثهم بأكثر مما يعرفون وهو يعدد أعمدته وأبوابه ويصف سقفه وفرشه .

فعجبوا وأصروا على كفرهم وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم فتنوا بما سمعوا مما رأى محمد عليه السلام فى تلك الليلة وما أخبرهم به من عجائب الأرض والسماء وما فرضه الله سبحانه على المسلمين فى تلك الليلة ، الخمس صلوات فى اليوم والليلة . ورغم إصرار القوم على التكذيب وهم يعرفونه وهو

الأمين ، وقالوا عنه كثيرا ما عهدناعليه من كذب ، وقال بعضهم لبعض كيف تم هذا الاسراء فى ليلة واحدة يذهب فيها محمدساريا بليل من مكة إلى بيت المقدس ثم يعرج به إلى السماء ويعود . وكل هذا يحدث فى بضع ساعات مع أن الابل تقطع هذه الرحلة من مكة إلى المقدس حيث يوجد بيت المقدس فى شهر . وارتد كثير ممن أسلم . وأنزل الله تعالى قوله :

« والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى » .

هذا تصديق من عند الله لما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم عن حادث الاسراء والمعراج . وينوه فى قوله تعالى :

« وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » .

وهنا الرؤيا من « رأى » البصرية ما رآه بعينه وما رآه بالكيفية التى هيأه الله سبحانه لها . ومحمد صلى الله عليه وسلم أسرى به وأعرج به بالجسد والروح معا بدليل قوله تعالى :

سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» فذكر « عبده » دليل الجسد والروح .

وأسرع نفر من المؤمنين المتشككين إلى أبى بكر يقصون عليه الحديث الجديد الذى قرع به محمد صلى الله عليه وسلم أسماع قريش فسألهم أبو بكر ، إن كانوا يكذبونه فيما قال ، فأجابوا نعم! وأنه ما زال يروى للناس فى ساحة الكعبة ما رأى فى أمر هذا الاسراء .

وإذا بأبى بكر يقول :

ـ والله لئن كان قد قاله لقد صدق . إنه ليخبرنا أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فنصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه :

وأسرع أبو بكر رضى الله عنه إلى حيث وجد محمداً يقص خبره واستمع إليه وهو يصف لقريش الجاحدة بيت المقدس حيث صلى ، وكان أبو بكر قد جاء من قبل ووقف خلفه . فلما أتم النبى وصف المسجد صاح وسط القوم وهو يربت على كتفه ويقول :

صدقت يا رسول الله . صدقت .

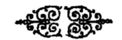
ومن يومئذ دعاه رسول الله عليه السلام «أبا بكر الصديق»

وأيد حديث الاسراء نزول قوله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » وسكتت قريش ـ أسكتها محمد بعد اجابته على الذين آمنوا به .. عندما سألوه عن آية ذلك فوصف لهم عيراً

مر بها فى الطريق فضلت واحدة من العير فدلهم عليها . وأنه شرب من عير أخرى وغطى الأناء بعد أن شرب منه . وقد سألت قريش فى ذلك فصدقت العيران بعد وصولهما مكة ماروى محمد عنهما . وأخبر كذلك عن موعد وصول إحدى القوافل ، فكان أن وصلت فى الميعاد لأنه أخبر أنها فى مكان معروف أبعاده وأن هذا المكان يصل من فيه آخر النهار .

وكان الاسراء والمعراج فى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب فى السنة الحادية عشر بعد البعث وبالجسد والروح معا .



ابو بكر الصـــديق

هو عبد الله بن قحافة من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهد الذى هو قريش بن مالك بن النضر بن كنانة . فهو قرشى ومن أحد بيوتها .

وولد لكلاب بن مرة بن كعب ، قصى وزهرة . ومن ذرية زهرة سعد بن أبي وقاص وآمنة بنت وهب أم النبي محمد عليه الصلاة والسلام .

فأبو بكر قرشي وقريب النبي عليه السلام . ومن أهل بيت ابن مرة ابن كعب . وابو بكر رضى الله عنه هو عبد الله بن قحافة ، وسمى أبا بكر لأنه أول من بكر بالاسلام من الشيوخ وأسلم بمجرد دعوته للاسلام فسمى آبا بكر، ولقب بالصديق لأنه صدق محمداً صلى الله عليه وسلم لما سمع منه حديث الاسراء والمعراج حين كذبه قومه وقال له على مسمع منهم : صدقت . صدقت .

أبو بكر صديق صدوق

يقول ابن كثير : فى تفسير سورة الليل فى قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى » أى وسيزحزح عن النار التقى النقى الأتقى . ثم فسره بقوله « الذى يؤتى ماله يتزكى » . أى يصرف ماله فى طاعة ربه ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا .

« وما لأحد عنده من نعمة تجزى » أى ليس بذله فى مكافأة من أسدى إليه معروفا فهو يعطى فى مقابلة ذلك وإنما دفعه ذلك « ابتغاء وجه ربه الأعلى » أى طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات فقال الله تعالى « ولسوف يرضى » أى ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات . وقد قال واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، حتى أن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم . وهو قوله تعالى « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى » . ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة فإنه كان صديقاً تقيا كريما جواداً بذالا لأمواله فى طاعة الله مولاه ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه الله ربه الكريم ولم يكن لأحد من الناس عنده منه يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله واحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية ، أما والله لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها لأجبتك وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة . فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف من عداهم . ولهذا قال تعالى : « وما لأحد عنده من نعمة

تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة ، يا عبد الله هذا خير » فقال أبو بكر يارسول الله ما على من يدعى منها ضرورة؟ فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم ! وأرجو أن تكون منهم » ويقال إن أبا بكر رضى الله عنه جاء يوماً ومعه ماله كله ليقدمه للرسول عليه السلام فى سبيل الله فقال له : وما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله وأبو بكر رضى الله عنه الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى حارب المرتدين من العرب وأعلن الحرب عليهم بسبب منعهم الزكاة وقال : والله لأحاربنهم إن منعونى عقال بعير . وذلك لأن الله سبحانه سوى بين الصلاة والزكاة وذكرهما دائماً مقرونين فى قوله «أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »

وأبو بكر أول من أسلم من الشيوخ وأسلم عن ايمان ويقين ولم تعتوره فى ايمانه كبوة وصحب النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة ودخل معه الغار مؤمنا بالدعوة وصاحبها ، وكان يحاول السير خلف النبي عليه الصلاة والسلام وعن يمينه وعن شماله مخافة أن يفاجئه الأعداء أو يصيبه أحد بنباله ، فداء وتضحية غير عابيء بحياة أو حياة من وراءه من بنين وبنات وزوجته وأموال وقد كان ذا مال وذا بنين وبنات .

ويوم أحد وقف وحده خلف النبي صلى الله عليه وسلم ممسكا سيفه رافعاً علم الجهاد ملبيا نداء النبي مصدقا قوله وهو يقول:

أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب عن شجاعة وعزيمة وايمان كابراً عن كابر ، غير هياب للقتال أو الموت فى سبيل الله ومعه أبو بكر ملبيا النداء .

وأبو بكر هو عبد الله بن قحافة فنى صباح الاسراء والمعراج ذهب المشركون ومن شك من المؤمنين ينادونه ليشهد ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم عن مشاهداته فى اسرائه ومعراجه فجاء مسرعا ووقف بجوار النبي يربت على كتفه ويجهر بقوله : صدقت صدقت ويحكى محمد عليه الصلاة والسلام وأبو بكر يقول صدقت صدقت ويلتفت للقوم وهو يقول لهم لقد صدقناه من قبل وما عهدنا عليه من كذب فسمى الصديق . ومن قبل أول من بكر بالاسلام فصار علما يعرف باسم أبى بكر الصديق . شهد المشاهد الكبرى مع النبي وصاحبه فى كل غدواته وروحاته عن ايمان ويقين

بيوت قريش

كان لقريش بيوت شرف عشرة هم : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم (الذين منهم أبو بكر الصديق) ومخزوم وعدى وجمح وسهم .

والأمور التى كانت من خصائص هؤلاء العشائر ذوى

البيوت العشرة هى : السقاية والعمارة والعقاب والرفادة والحجابة والسدانة والندوة والمشورة والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والأموال المحجرة .

وقد اختص كل بيت من هذه البيوت بخصيصة منها :

أولا ـ السقاية : فالسقاية هى سقاية الحجاج الذين كانوا يقصدون بيت الله الحرام فى الجاهلية أيام الحج والعناية بالغرباء منهم وكان بنو هاشم هو أهل هذه الوظيفة .

ثانيا ـ العمارة : والعمارة هى منع من يتكلم فى بيت الله أيام الحج وغيره بكلام سيء أو قبيح أو يرفع فيه صوته ، وكانت هذه الوظيفة أيضا فى بنى هاشم الذين منهم عبدالمطلب والعباس صاحبها .

ثالثا ـ العقاب : وهى راية قريش وكانوا يحفظونها فى بيت من البيوت العشرة ، فإذا وقعت حرب أخرجوها ويعطوها لمن اتفقوا عليه واجتمعوا على أن يقدموه ليحفظها . وكان حفظ الراية من خصائص بنى أمية ومنهم أبو سفيان وهو صاحبها.

رابعاً ـ الرفادة : والرفادة الاسعاف ، وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة فى بنى نوفل الذين منهم الحارث بن عامر وهو صاحبها .

خامساً ـ السدانة :

سادساً ـ الحجابة :

وهما خدمة بيت الله الحرام وحفظ مفتاحه . وهى وظيفة دينية ومتولى هذه الوظيفة يشترك مع عشيرته بتدبير الشئون الاجتماعية وهذا العمل كان عندهم من أهم الأمور العامة فى مدينتهم وهذه الوظيفة تشبه إلى حد كبير وظيفة كبار رجال الدين. ولمن يتولاها شأن يذكر عندهم ، وقد كانت الحجابة والسدانة فى بنى عبد الدار الذين منهم عثمان بن طلحة وهو صاحبها .

سابعاً - الندوة : والندوة هى مجمع ومجلس دار الندوة . وكانت هذه الوظيفة من خصائص وتدبير بنى عبد الدار وهم أصحابها وهى تشبه مجلس الأمة .

ثامناً - المشورة : والمشورة يراد بها رئاسة الشورى وهى تشبه رئاسة مجلس الوزراء أو رئاسة مجلس الأعيان .

وكانت هذه الوظيفة من خصائص بنى أسد ، وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة بن الأسود . وكان من شأنهم فى هذه الوظيفة أن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة ، فإن وافق عليه اجتمعوا ووضعوا رأيهم فيه وإن رفض وعارضهم فيه كانوا له أعوانا .

تاسعا - الاشناق : فهى الديات جمع دية والمغارم . فقد كان العرب يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرماً أو دية ، وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من ثراة العرب من خصائص بنى تيم الذين منهم أبو بكر الصديق . فكان

أبو بكر إذا نهض مع أحد صدقته قريش وأعانوا من نهض معه وإذا نهض غير أبي بكر خذلوه .

عاشراً ـ القبة : فهي تشبه إلى حد بعيد نظارة الحربية وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون إليها مايجهزون به الجيش ويعمدون إليها وقت الحرب فقط لاستعدادهم لها كل وقت إذا تأججت نيران الحرب . وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد وهو صاحبها .

حادي عشر ـ الأعنة : فهي رئاسة الخيالة ـ الفرسان ـ وكانت هذه الوظيفة في بني مخزوم وصاحبها خالد بن الوليد أيضاً .

ثاني عشر ـ السفارة : كان العرب من أهل مكة يحتاجون إلى السفارة في الحروب في أوائلها أو بعد شبوب نارها وتعاظم أوزارها ويحتاجون إلى هذه الوظيفة إذا نافرهم أحد للمفاخرة وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدي الذين منهم عمر ابن الخطاب وهو صاحبها .

ثالث عشر ـ الأيسار : فهي الأزلام والقداح . فقد كان العرب في الجاهلية يضربون بالأزلام أو القداح إذا أرادوا أمراً وكانت هذه الوظيفة لبني جمح الذين منهم صفوان بن أميه وهو صاحبها .

رابع عشر ـ الأموال المحجرة : فهي الأموال التي سموها لآلهتهم ويصلح أن تسمى هذه الأموال أمّ الأوقاف الخيرية .

وقد كانت هذه الوظيفة وهى تولى النظر فى الأموال المحجرة أو الموقوفة وهى من خصائص بنى سهم الذين منهم الحارث بن قيس وهو صاحبها .

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن بين قبائل أهل مكة واقتسام الأعمال المهمة فيما بينهم . وأما الأمور الجزئية التى كان الأفراد يختلفون فيها فيفصل فيها كبار أسرهم وعشائرهم على طريقة التحكيم - مجلس عرفى - ولم يكن للقوم شريعة مكتوبة وإنما كانوا يقضون فى الأمر كما يبدو لهم الصواب ويقيسون الأمور بأشباهها .

ومما يدل على كرم العرب ومروءتهم أن أهل مكة وعشائرها قرروا فيما بينهم فى مؤتمر من قبائل قريش عقد فى دار عبد الله بن جدعان وتعاهدوا وتعاقدوا على ألا يجدوا فى مكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم ممن دخل مكة من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه وأضر به حتى ترد عليه مظلمته ، وكانوا يكتفون بأن يجير الضيف واحد من بيوت العزة والقوة بأن يقول هذا الضيف أنا جار فلان ، فإنه يسير مثل مجيره فى نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يظلمه .

مزايا أبى بكر رضى الله عنه

وذات يوم نادى محمد عليه السلام بالتبرع فى سبيل الله فجاءه أبو بكر بكل ماله . فقال الرسول عليه السلام : وما

أبقيت لأهلك ؟ قال أبو بكر : أبقيت لهم الله ورسوله .

فهذا الذى ملأ الايمان قلبه وقلب أهل بيته عامر بالإيمان بالله وبالرسول حتى لا يشعرون بالعسره ولا يضيقون لفراغ اليد من المال أجدر بصحبة رسول الله عليه السلام وأشرف بنسبه

وأبو بكر كانت له منزلة رفيعة فى الجاهلية ، إذ كان من بنى تيم الذين اختصوا بالاشناق وهى الديات والمغارم وهى مساعدة المستغيث ومن يستحق المساعدة ممن حمل مغرما أو دية عن قتيل ولم يستطع الدفع ، فكان أبو بكر ينهض مع صاحب المغرم لجمع ما يجود به ثراة العرب من مالهم لهذا الغارم ، فكانوا يدفعون مكرمة لصاحبه أبى بكر ولمنزلته عندهم .

وأبو بكر رضى الله عنه كان يلازم رسول الله عليه السلام فى حروبه وهو أول من وقف إلى جواره فى موقعة أحد يوم أن أعجبت المسلمين كثرتهم فهزموا وفروا أمام المشركين ووقف محمد وحده شاهراً سيفه وهو يقول :

« أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » .

ووقف إلى جواره أبو بكر يرفع العلم فعاد المسلمون للقتال حتى انتصروا .

زواج محمد صلى الله عليه وسلم
بعائشة رضى الله عنها

عائشة بنت أبى بكر صديق رسول الله كانت طفلة فى التاسعة من عمرها فى الوقت الذى كان فيه الرسول عليه السلام يرغب فيمن تؤانسه فى بيته وتلقاه بالبشر والترحاب بعد خديجة رضى الله عنها . ورسول الله لم يتزوج بأحد من النساء إلا بتقدير من الله وإيحاء منه . ويحكى أنه حدث ذات ليلة ومحمد فى فراشه أن رأى فى نومه أن جبريل عليه السلام يأتيه بصورة عائشة بنت أبى بكر فى لفافة من الحرير الأخضر وقال له « إنها زوجتك فى الدنيا والآخرة » . واستيقظ محمد عليه السلام من نومه فى دهشة وعجب ، وكتمها فى نفسه وإذا بنفس الرؤيا تتكرر ليال ثلاثة متوالية ، فأيقن أنه أمر من ربه وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : إن يكن هذا من عند الله فليمضه . ولم يجد الرسول الكريم إزاء هذا التأكيد السماوى الذى اعتبره فى صورة الأمر إلا أن يذهب إلى أبى بكر ويقص عليه الرؤيا ويخبره خبرها .

وأنصت إليه أبو بكر الصديق فى صفاء وسعادة وقال له :

« إنها ما زالت صغيرة يارسول الله وسأرسلها إليك لتراها»
ودخل أبو بكر إلى حرم بيته وأرسل الصغيرة عائشة التى لم تكن قد جاوزت التاسعة من عمرها إلى رسول الله عليه السلام ومعها

أناء فيه تمر وأمرها أن تقول له : هذا كل ماعندنا يا رسول الله فهل يوافقك ؟ (يقصد أبو بكر أن عائشة لا تزال صغيرة لأن تكون زوجة وها هي كما يراها وهي تقدم طبق التمر) .

وأسرعت الصغيرة إلى حيث أمرها أبوها وحيث النبي ، وحدثته بما سمعته من أبيها وقدمت له ما أرسلها أبوها به ثم عادت ثانية إلى أبيها الذي لقيها في لهفة وسألها : ماذا قال يابنية ؟ فأجابت عائشة ٠

قال : نعم ! وعلى بركة الله .

وسكت أبو بكر وقد أسعده أن يعزز الله رابطة الاسلام والايمان والاخوة والجهاد برابطة النسب والمصاهرة بينه وبين رسول الله عليه السلام . ولكنه عاد يفكر في أمر جديد .

لقد كانت عائشة مخطوبة لشخص آخر - وعده بها عندما تكبر ومن اللائق أن يتحرر أولا من الوعد الذي قطعه على نفسه لصديقه القديم - مطعم بن عدى - ليزوج عائشة من ابنه جبير بن مطعم بن عدى .

وأفلح أبو بكر في التحرر من وعده .

وخطب النبي الكريم عائشة الصغيرة وهي بنت تسع سنوات ولم يعرف بأمر هذه الخطبة أحد سواه ، هو وأبو بكر وزوجته أم عائشة وكان عليه الصلاة والسلام كثير التردد بعد ذلك على دار أبيها وكثيراً ما كان يوصي بها أمها خيراً .

كانت عائشة طفلة يوم طلبها محمد من أبيها . ولم تكن تدرك من أمر الحياة شيئاً . كما أن تفكيرها الساذج لم يكن ايرقى إلى درجة تفهم به المركز الخطير الذى كان يؤهلها له طلب محمد عليه السلام اياها .

لقد كان فى طلب محمد ليد عائشة الطفلة ، وهى فى السن المبكر سن الطفولة ما يعنى أن هناك أمراً وتأكيداً لاقرار هذا الطلب وفى هذه الفترة بالذات ، فلم يجد الصديق أمام طلب صاحبه ـ الذى لا ينطق عن الهوى ـ غير أن يوافق ويسرع إلى التحرر من وعده لمطعم ابن عدى الخطوبة التى وعده بها لابنه جبير

فقد كانت هناك خطوبة سابقة يجب أن تقطع قبل أن يمر الزمن . وتكبر الطفلة عائشة ، ومن أجل هذا تكرر مجىء جبريل لمحمد عليه السلام فى منامه ليسرع فى مفاتحة أبى بكر بالأمر وليتحرر أبو بكر من وعده فى الوقت المناسب ، إذ لولا حكمة فسخ الخطوبة الأولى لكان بوسع محمد عليه السلام أن يسكت ويكتم هذا الأمر حتى يحين حينه ، فيعلنه فى الوقت المناسب لعشر عائشة ، ولكن الله أرادها . وأرادها فى ذلك الوقت بالذات لأمر يعلمه ، ولم يكن أمام محمد عليه السلام غير الطاعة والامتثال لمشيئة الله .

وخطبة محمد عليه السلام لعائشة لم تكن بالنسبة له أكثر من حادث عرضى لم يقتطع لها من وقت الدعوة ما يصرفه عنها

فى ليل أو نهار ، أتاه فيه أمر الله فأطاع ونفذه . ثم سكت عليه حتى يحين أوانه المحدد . فاستمر فى طريقه المرسوم من لدن عزيز حكيم وهو نشر الدعوة والجهاد فى سبيل ابلاغها لا بين قومه فى قريش وحدهم ولا بين العشائر المجاورة فقط بل هو مبعوث بدعوة للناس كافة .

ولما تمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مأمورية الهجرة ودخل المدينة وقابله هو وصاحبه أهلها بالترحاب ، ونادى مناد يقول : « يا بنى قيلة ، يا بنى عبد الأشهل ، ها هو ذا صاحبكم قد جاء » ودوت الأجواء بصيحات الفرح وعلت الأهازيج الطروب ، وخرج الناس جميعاً ليروا رسول الله ويجتلوا طلعته الحبيبة لا فرق بين مؤمن به وبين مشرك استمسك بشركه . وبين هؤلاء وهؤلاء خرجت بنات النجار وأنشدن :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

وبعد أن تمت لرسول الله هذه الخطوات المباركة بدأ بعد ذلك فى وضع أسس تكفل هذا الاستقرار المنشود ، لا بين المسلمين وحدهم ، بل مع غيرهم من سائر الناس وخاصة أهل الكتاب . ذلك أن اتجه صلى الله عليه وسلم إلى ابرام ميثاق سلم وتعاون عام بين المسلمين ومن سالمهم من أهل الكتاب . وكانت

حجة مكتوبة تنطق بسعة الأفق ورجاحة العقل وبعد النظر وصائب الهدف وسماحة الدين الحنيف .

وقد جاء فى هذا العهد الذى يعتبر أول وثيقة دستورية اسلامية ما يلى :

« المؤمنون والمسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس .

وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم - والمفرح المثقل بالدين والعيال - أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم أو ابتغى وسيعة - طبيعة - ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم . ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم . وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين .

لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم . ويهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى ثعلبة وبنى ثعلبة وبنى

الأوس ومواليهم وبطانتهم كبنى عوف سواء .

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وبينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

واليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غير مضار ولا اثم ، ولا تجار حرمة إلا باذن أهلها ولا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى الصلح يصالحونه ويلبسونه وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله » .

هذا ماجاء بشروط المعاهدة التى حوت من النصوص ما أكد حسن الجوار والتفاهم والمعاملات الحسنة بين كل من طرفى التعاقد فيها ، وهذه الوثيقة التى وضعها محمد صلى الله عليه وسلم تقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة والمال وتحريم الجريمة . وبهذا العهد المدعم بهذه الوثيقة الذى أقره أهل الكتاب استقرت الأمور وبدأت الحياة تسير سيرها الذى رسمه الله تعالى ورسوله فى سبيل الدعوة الاسلامية .

وفى هذا الهدوء والاستقرار عاد إلى المدينة أهل بيت رسول الله من مكة وفى رحاب المدينة المنورة التأم شمل بيت الرسول

عليه الصلاة والسلام ، وكان تحته السيدة سودة بنت زمعة التى كانت آمنت مع زوجها السابق السكران بن عمرو فى بدء الدعوة وجاهدت وهاجرت معه فى جملة من هاجر فى الهجرة الأولى إلى الحبشة ، ولما مات زوجها السكران بن عمرو بعد عودتهما من الحبشة ، دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة زوجته الوفية الأولى خديجة عليها رضوان الله ، أما عائشة فقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة وهو بمكة وكانت لا تزال طفلة فى سن التاسعة ولم يبن بها : ولما هاجر إلى المدينة واستقر له الأمر وعقد ذلك العهد والتـأم شمله ، سأل صاحبه أبو بكر : ما الذى يمنعه من أن يبنى بأهله ؟ يقصد ابنته عائشة التى خطبها قبل الهجرة .

وفكر الرسول الكريم عليه السلام طويلا . إذ مرت على خطوبته لعائشة سنوات مرت بما حوت من أحداث جسام ، وأن العروس المطهرة اليوم لأصلح ما تكون لاتمام زيجتها ، فوافق محمد عليه السلام على فكرة صاحبه وبنى بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها.

ودخلت عائشة بيت محمد عليه السلام وهى طفلة ساذجة جاءت من أنبل بيت إلى أطهر بيت ومن أشرف والد إلى أكرم زوج ، وأن محمد البر العطوف ليقدر فيها هذه الطفولة فيرعاها وتلك السذاجة فيحنو عليها . وعائشة الطفلة الزوجة لم تنس

طفولتها فتضع أمامها الدمى وتتفنن فى تزيينها وترتيبها واللعب معها ، ويدخل محمد عليه السلام عليها فإذا هى وسط عرائسها منهمكة فيها وقد وضعت لبعضها ما يشبه الأجنحة فيسألها محمد عليه السلام عما تصنع ؟ فتقول له :

- إنهن خيول سليمان .

فيبتسم فى صفاء ويعود يسألها

وما هذه الأجنحة ؟

فتقول عائشة : ألم تكن لسليمان خيول ذوات أجنحة يطرن بها ؟

ويضحك محمد (ص) عندما يذكر عائشة الطفلة التى كان النوم يغلبها وهى تعد الخبز فتدخل الشاة وتأكله .

وأنه ليتحمل راضيا هذه الطفولة الساذجة ويأبى إلا أن يرعاها وينشئها ويحدوها بالحب والحنان . ويهيؤها لأن تكون جديرة بشغل مكانتها الخطيرة كأم المؤمنين .

كان بوسع محمد عليه السلام يوم أعرس بعائشة أن يستغل مكانته الروحية فى إعزاز عروسه وادخال الفرحة إلى قلبها ، بأن يوفر لها من الطعام والشراب مالذ وطاب ، ومن الملبس مارق وغلا . كان بوسعه أن يطلب فيستجيب له المؤمنون ويعملون جاهدين لارضائه ولكنه عليه الصلاة والسلام أبى وأبى إلا التقشف وطاعة الله ، فلم يأكل إلا عادى الطعام ولم يلبس غير خشن الثياب . ولم يتنكر لطبيعة كانت فيه قبل هجرته فكان

يشمل بحنانه وبره كل الناس . ولم يبخل به حتى على الحيوانات ودواب الحمل . ولم يمنح محمد عليه الصلاة والسلام مودته وحدبه لمن لاصقوه فقط وكانوا دواماً إلى جانبه ، بل منحها فى سخاء لسائر المسلمين ، وأفاض من هذه المودة والعطف على أبنائهم فقربهم إليه وعودهم على الشجاعة والجرأة وحب الحق . وراح يدخل فى قلوبهم الساذجة صورة دينه ودعوته التى قامت على الحب وعدم التعالى وتوفير السعادة للجميع . بهذه المبادى انتصر محمد عيله السلام وبهذه الأسس تملك القلوب وأعز الله دينه ودعوته ، وإنه فى ذلك يقول :

« المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيق والعلم سلاحى والصبر دائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى والطاعة حسبى والجهاد خاتى وقرة عينى فى الصلاة » .

وكان طبيعياً أمام هذه المبادىء ، وتلك الأسس الشماء أن يعظم أمر محمد عليه السلام ، ويتكاثر تابعوه وينتشر دينه . وتهيء له الأجواء لوناً جديداً من ألوان الاستقرار الاجتماعى فنزل عليه من الله قرآن فيه تشريع وتنظيم وارساء أسس تكفل قيام هذا المجتمع الجديد وبقاءه .

كانت حياة محمد صلى الله عليه وسلم بالرغم مما يمر بها من متاعب الجهاد والحرب ونشر الدعوة ومقاومة اليهود والمنافقين كانت حياة طيبة ويعيش فى بيته الكريم مع نسائه المطهرات حياة الهدوء والرضاء يغمر بيته حب وحنان ورعاية وعدل يعم الجميع وراحة واستقرار ، فلا تنازع ولا مشاحنة ولا تباغض بين أمهات المؤمنين ، بل ود متبادل وصداقة وثقة واحترام ، اللهم إلا من بعض طرائف كانت تحدث بين نسائه بدافع الغيرة والنفس البشرية التى لا تخلو منها فى الوجود نذكر منها :

حدث أن خرج محمد صلى الله عليه وسلم لاحدى غزواته مصطحباً معه عائشة وحفصة كل منهما فى هودج ، وإذا بحفصة ترقب النبي وهو دائم الاقتراب من هودج عائشة يحدثها ويسر إليها ، فتملؤها الغيرة ، ففكرت حفصة بدافع غيرتها فى حيلة تثأر لنفسها فاقتربت من هودج عائشة وأسرت إليها قولا ضحكتا منه طويلا ، ووافقت عائشة على عرض صاحبتها وهو أن تأخذ كل منهما مكان الآخرى فى هودجها ولترتيا بعد ذلك ماذا يحدث من أمر محمد زوجهما عليه السلام .

وتم تنفيذ ما اتفقتا عليه وانتهزتا فرصة انشغال النبي بأمر من فى الركب فتبادلتا مكانيهما دون أن يلحظ الرسول ذلك ،

وظل الركب فى مسيره ثم جاء النبي على ظهر دابته فاقترب من هودج عائشة وراح يكلمها كعادته ولم يعلم أن من فى داخله هى حفصة . وطال به الحديث ، حتى كان على الجيش أن يحط رحاله فى مكان ما ليقضى ليلته ثم يواصل السير مع الصباح ، وانتحى محمد صلى الله عليه وسلم بهودج عائشة وليس فى داخله عائشة بل حفصة ، وانتحى إلى ناحية منعزلة عن الجيش .

وما أن أناخ ناقتها وفتح الهودج حتى فوجىء بحفصة تبتسم له ابتسامة ذات معنى ، فكتم دهشته وتمالك نفسه وابتسم لها ثم قضى ليلته معها .

تلك كانت ليلة ليلاء على عائشة «الحميراء» الغيور . لم يغمض لها جفن ولم يستقر لها قرار ولم تهدأ لها نفس ، فباتت قلقة ثائرة غاضبة نادمة وراحت تزجر نفسها لأنها انقادت لرأى غريمتها التى سخرت منها وانتصرت عليها .

فقد عصفت الغيرة بقلب عائشة وتركت مضجعها إلى العراء ترفع بصرها إلى السماء تسأل الله أن يهدىء ثورتها ويبرئها من غيرتها . وحدث مرة أخرى أن تركها النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وخرج إلى البقيع ، فأرقت لذلك أرقاً شديداً واستبدت بها الغيرة وظلت حيرى لا تستقر حتى عاد الرسول الكريم ، فإذا به يلقاها فينكر حالها فلما عرف أنها «الغيرة» ضحك صلى الله عليه وسلم وقال لها :

ـ إذاً فقد غلبك شيطانك يا عائشة !

فسألته وقد ذهب مابها : ألِيْ شيطان يا رسول الله ؟

فأجاب : نعم لكل انسان شيطانه .

وسألته فى دهشة : وحتى أنت ! ؟

ـ نعم ولكن الله أعاننى عليه فآمن .

وكان الناس يعرفون حب النبي لعائشة بنت أبي بكر فوق مايحب سائر أزواجه ، فكانوا يهبون الهبات فى يومها ويقدمونها للرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان لذلك أثره فى أزواجه الأخريات . فاجتمعن ذات ليلة وبينهن ابنته فاطمة الزهراء ، وسألنها أن تكون رسولهن إلى أبيها ليعدل بينهن وبين عائشة ، وقبلت الزهراء البتول رسالة أمهات المؤمنين وذهبت إلى أبيها حاملة إليه نبأ احتجاج نسائه وكلمته بشأنهن ، فإذا به يعرض بوجهه ويسكت عنها .

فكررت الحديث . فقال لها صلى الله عليه وسلم :

ـ أو لست تحبين ما أحبه ؟

ـ وأجابت الزهراء : بلى يا رسول الله .

فقال لها : إذاً فأحبي عائشة .

وسكتت فاطمة طويلا ، وإذا بمحمد عليه السلام يقول فليتقين الله فى عائشة . فوالله ما نزل عليّ الوحى وأنا فى فراش واحدة منهن غيرها .

لقد كان لمحمد عليه الصلاة والسلام بيت صالح يملؤه أزواج صالحات رضين بما رضيه رسول الله ، وكانت كبراهن سودة بنت زمعة التى توسلت إليه عليه السلام أن تهب يومها لعائشة ارضاء له مكتفية بشرف النسبة إليه . وما تزوج محمد الرسول عليه الصلاة والسلام واحدة من نسائه المطهرات إلا ليرفع من شأنها وشأن أهلها ، ويؤلف بين القلوب المتنافرة ويحكم سياج الدعوة بهذه القوى المتحدة المتكتلة بالدين والنسب .

تزوج النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى شبابه وعنفوان صباه بخديجة بنت خويلد وهى فى سن الأربعين وبقى علها ورزقه الله منها بأولاده جميعاً : فاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم وعبد الله وأبو القاسم أما ابراهيم فمن مارية القبطية التى أهداها له المقوقس حاكم مصر فى ذلك الوقت لما عرض عليه الاسلام ، وظلت معه وفية مخلصة آمنت به وصدقته .

عاشت خديجة رضى الله عنها فى بيت محمد عليه السلام دارها وفية لزوجها مؤمنة بربها ومنحته كل ما لها فأنفقه جميعاً ولم تعارضه أو تحاسبه أو تسأله أين أنفقه وإنما قالت له يوم أخبرها بالملك الذى نزل فى غار حراء وقال له « اقرأ» فقالت له « « الله لن يخزيك أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر » . وارتاح محمد عليه السلام لحديثها ووقفت إلى جانبه

تغذيه بالحب وتبادله العطف والحنان ، وهى التى نزل من أجلها جبريل يوماً يقول : يا محمد إن الله يقرئك ويقرىء خديجة السلام . فبلّغ محمد عليه السلام هذا الخبر لخديجة وقال لها إن الله يقرئك السلام فأجابت بلسان المؤمنة التقية ، أنه هو السلام ومنه السلام وإليه السلام .

وهكذا أدركت خديجة تعاليم النبوة ففقهت ونهت وأراد الله سبحانه أن تموت ولا ترى لها (ضرة) وبقى محمد عليه السلام بعدها ما يقرب من عام ، ثم تزوج سودة بنت زمعة ثم تزوج عائشة بعد أن هاجر إلى المدينة وهى فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، ثم جمع بين ثلاثة عشرة زوجة ومات عليه السلام وترك تسعاً منهن كما سنبينه فيما بعد

ولما تم للرسول ما أراده الله من حكمة تعدد الزوجات نزل قوله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ، إلا ما ملكت يمينك ، وكان الله على كل شىء رقيباً » ، وفى هذا القول ما يؤكد أن الله سبحانه أراد هذه الزيجات دون غيرها لحكمة علمها الله سبحانه ، ومن حكم تعدد الزيجات للنبي صلى الله عليه وسلم وهو فى سن أكثر من الخمسين وبعد الهجرة فى العصر الذى شاءت حكمة الله فيه أن ينشىء دولة جديدة قاعدتها المدينة ، وفى هذا العصر الذى نشبت فيه كثير من المعارك وغزا فيه الرسول عليه السلام عدة

غزوات أشدها وأقساها : بدر وأحد والخندق وبنى المصطلق وكان لهذه الزيجات مرمى سياسى وآخر اجتماعى ، ومنها ما كان له مساس كبير بالدين لم تألفه شبه الجزيرة العربية .

تزوج محمد عليه السلام وهو فى الخامسة والعشرين من عمره بالسيدة الوفية الكريمة خديجة بنت خويلد التى كانت فى الأربعين من عمرها ، وقد تزوجت قبله مرتين من أبى هاله هند بن زرارة التميمى ثم عتيق بن عابد المخزومى ، وورثت عنهما مالا كثيراً بعد وفاتهما فوق ما ورثته عن أبيها مما جعلها مقصد راغبي الزواج من سادة قريش ، ولكنها كانت تأبى الزواج بهم لاعتقادها أنهم يرمون المال الذى ورثته . وظلت خديجة فى وحدتها قانعة بوحدتها حتى ظهر لها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ذلك الفتى المنحدر من أكرم البيوت حسباً وأثبتها أصلا وأعلاها فرعاً ، والذى تفرد بالأمانة والبعد عن المجتمع والزهد فى الدنيا حتى لقب بين أهل مكة بالأمين .

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

تزوج محمد عليه السلام بثلاثة عشر سيدة من كرائم السيدات وأعلاهن نسباً وهن :

١ - تزوج محمد عليه السلام وهو فى ريعان شبابه ومقتبل عمره وهو فى سن الخامسة والعشرين بالسيدة الكريمة خديجة

بنت خويلد بن نوفل من بنى نوفل ، وهم أصحاب الرفادة التى هى اسعاف المنقطعين من الحجاج حجاج بيت الله الحرام فى الجاهلية وبقيت بمفردها فى بيته إلى أن بلغ الخمسين من عمره وتوفيت بعد أن رزقه الله منها أولاده الستة . عبدالله وأبو القاسم وفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم وماتت قبل الهجرة ، أما ولده السابع ابراهيم فمن مارية القبطية .

٢ ـ السيدة سودة بنت زمعة التى آمنت به وبدعوته مع زوجها السابق السكران بن عمرو وهاجرت معه فى الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وعادت معه إلى مكة وكانت سيدة طاعنة فى السن ضامرة الجسد وليست على جمال ، ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة مات زوجها وتركها أرملة فى وقت ازداد فيه اضطهاد المسلمين من أهل مكة الذين لا زالوا على الشرك ، فتزوجها الرسول الكريم وبنى بها ليحفظ عليها ايمانها ويكرمها فى وحدتها لجهادها بعد أن صارت ولا عائل لها .

٣ ـ خطب الرسول عليه السلام عائشة وهى فى سن التاسعة من عمرها وهو فى مكة بعد وفاة خديجة ثم دخل بها بعد الهجرة وبنى بها وهو فى المدينة وقد بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وذلك بوحى من الله لتوثيق الرابطة بينه وبين أبيها صاحبه وصديقه أبى بكر رضى الله عنه .

٤ ـ كانت حفصة بنت عمر بن الخطاب زوج خنيس بن

حذافة ، ولما مات عرضها أبوها على النبي محمد عليه السلام فقبل لتوثيق الرابطة بينهما ، وعمر بن الخطاب هو أحد العمرين - عمرو بن هشام وعمر بن الخطاب - اللذين دعا النبي فى بدء الدعوة أن يعز الاسلام بأحدهما ، فاختار الله عمر بن الخطاب وكانت دعوته صلى الله عليه وسلم : «اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين»

٥ - وتزوج النبي محمد بالسيدة زينب بنت خزيمة التى كانت زوجة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الذى شهد بدراً الكبرى واستشهد فيها بعد جهاد شديد . وقد عاشت هذه الزوجة بعد زوجها الأول وحيدة بلا عائل ، وكانت هذه السيدة تشفق على الفقراء والمساكين وتسرع إلى البر بهم حتى سميت «أم المساكين» وقد نزل الوحى على الرسول بالبناء بها مكرمة لها ولزوجها السابق فخطبها الرسول عليه السلام وضمها فى بيته إلى نسائه ، ولم تبق فى بيته غير سنتين حتى لحقت بالرفيق الأعلى .

٦ - هند أم سلمة ، كانت زوجة لأبى سلمة بن عبد الأسد الذى كان بطلا مظفراً وأميراً من أمراء المسلمين شهد بدراً ، وصال فيها وأبلى بلاء حسناً ، وعرفته أحُد وكان من أثبت المسلمين فى مواقفه وقد جرح فى أحد جرحاً خطيراً ورغم ذلك وكل إليه القضاء على بنى الأسعد وحارب بنى أسعد فحقق الله على يديه نصراً عظيما وعاد بغنائم كثيرة وأعاد للمسلمين هيبتهم التى كادوا يفقدونها بين القبائل بعد غزوة أحد ، ثم

مات وهو قرير العين مرضى عنه .

فأرسل رسول الله إليها حاطب بن بلتعة يخبرها برغبة الرسول عليه السلام فقالت له :

ـ مرحباً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبلغه عنى أنى امرأة مسنة وأم أيتام ، وأنى فوق ذلك شديدة الغيرة.

فأرسل الرسول يقول لها :

ـ أما قولك ـ أنك امرأة مسنة ـ فأنا أسن منك ولا يعاب على المرء أن يقال تزوج أسن منه .

ـ وأما قولك ـ انى أم أيتام ـ فإن كلهم عيال على الله ورسوله

ـ وأما قولك ـ انى شديدة الغيرة ـ فإنى أدعو الله أن يذهب عنك ذلك . وتزوجها رسول الله عليه السلام وكان ابنها شاهدها فى الزواج . ويحكى أنها وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنهما .

٧ ـ زواج محمد الرسول عليه السلام بزينب بنت جحش .

زينب بنت جحش أمها بنت عبد المطلب وأبوها من قريش فهى قرشية . ورغب الزواج منها زيد بن حارثة مولى رسول صلى الله عليه وسلم وربيبه وقد كان زيد أسير حرب ، غنمه بعض العرب فى موقعة لهم مع قومه فباعوه لحكيم بن خزام ووهبه حكيم هذا لعمته خديجة بنت خويلد فوهبته خديجة إلى زوجها محمد ابن عبد الله الرسول عليه السلام

ولما طُلبت زينب القرشية من أهلها لزيد بن حارثة مولى

رسول الله ومتبناه ، غضبت وغضب أهلها ولكن الرسول الأمين الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق والذى قال « الناس سواسية كأسنان المشط» و « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى أبى هذا الرفض وأصر أن تقبل زينب بنت جحش القرشية زواجها لمولاه زيد بن حارثة وأبلغهم وقال لهم : لقد رضيته لكم ، وأقضى بأن تنكحوه فأنكحوه . ولأن الله سبحانه يعلم ما يسره أهل زينب فأنزل قوله :

« ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً » .

وأمام ما جاء به الوحى نزل أهل زينب لأمر الله ورسوله وقبلوا أن تدخل أيم قريش وبنت سادتها بيت مولى رسول الله وليس لهم أن يتخيروا غير ما أراده الله سبحانه ورسوله وقالوا: رضينا يا رسول الله .

ودخلت زينب بنت جحش القرشية بيت زيد بن حارثة مولى محمد عليه السلام وهى راضية نازلة على حكم الله ورسوله.

ولكن ما لبث أن شعر زيد الذى أحب زينب الحب كله فى بدء حياته الزوجية أنها تبغضه لعدم التكافؤ بينهما ، وكانت تزداد جفوة منه لما كانت تسمع من لداتها معايرتها به ، إذ تزوجت القرشية مولى من الموالى فكانت تهرع إلى التبتل إلى الله

وتزداد فى التبتل حتى أن زيداً كان يجدها تقوم الليل وتطيل القيام وتستعين بحبل مدلى من السقف فتربط به عنقها حتى لا تميل إذا غلبها النوم وهى قائمة تصلى. فشعر زيد أنها تهجره فغضب وأبغضها واشتكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الرسول الأمين الذى يعلم أن زواج زيد بزينب نزل فيه قرآن لحكمة سماوية وليقضى الله سبحانه على الفوارق بين طبقات المسلمين التى كانت سائدة فى الجاهلية، وليقضى الله على فكرة الأدعياء وما فرضه لهم المجتمع الجاهلى من حقوق، فلم يفعل الرسول شيئاً لما اشتكى له زيد مما لاقاه من زينب بل سكت ولما كرر عليه الشكوى قال له أمسك عليك زوجك واتق الله. ونزل قول الله تعالى:

« وما جعل أدعياءكم أبناءكم. ذلكم قولكم بأفواهكم. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ».

فقد قضى الله بهذا القول على الشبهات، وحدد موقف الأب من متبناه وموقف المتبنى من أبيه فى شتى الحقوق. وقد كان المتبنى يشارك الأبنـــاء وأصحاب الأنساب الحقة فى حقوقهم ويقفون جنباً إلى جنب معهم فى التوارث والامتيازات. ونزل قول الله تعالى:

« وإذ تقول للذى أنعم الله عليه. وأنعمت عليه. امسك عليك زوجك واتق الله. وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ».

ذلك أن محمداً عليه السلام لما رأى من زيد أنه يريد فراق زينب ولم يكن نزل قرآن قال له - امسك عليك زوجك واتق الله - كما بينا ولما رأى محمد عليه السلام ما كانت عليه زينب من التبتل والايمان وكثرة الصلوات دخل فى قلبه حب لها لإيمانها وتقواها ، ولكنه كان يغالب هذا الحب البرىء ويحاول أن يخفيه فأظهره الله سبحانه فى قرآنه .

ولما لم يجد محمد عليه السلام بدا من فراق زيد وزينب فرقهما بعد نزول هذه الآيات وتزوجها ليقضى على عادة اجتماعية سابقة ودعوى التبنى وما كان المتبنون يتمتعون به من حقوق دون وجه شرعى فنزل قول الله « فلما قضى زيد منها وطراً ، زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله . سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

فقد أراد الله سبحانه زواج زيد من زينب بنت جحش الهاشمية وأراد طلاقها منه ليقضى على عادة اجتماعية كانت فاشية وفاسدة وليمحو الفوارق بين الطبقات ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والكل سواسية والناس جميعاً من آدم وآدم من تراب . وبنى محمد عليه السلام بزينب بنت جحش وضمها إلى نسائه أمهات المؤمنين .

٨ ـ كانت ريحانة بنت عمرو بن خناقة من بنى النضير زوجا لرجل من قريظة اسمه الحكم وهم جميعاً من يهود المدينة الذين أبغضوا رسول الله عليه الصلاة والسلام وحاربوه مع الأحزاب يوم الخندق ، ولكن الله العـــلى العظيم نصر المؤمنين وهزم الأحزاب وحده وغنم المسلمون غنائم كثيرة منها السيدة ريحانة بنت عمرو اليهودية ، وكانت عند تقسيم الغنائم فى السهم الذى أصاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وعرض عليها الاسلام وأن تختار الله ورسوله . وتزوجها وضمها إلى نسائه أمهات المؤمنين ، وكان زواجه منها استمالة قلوب بنى النضير و بنى قريظة وأن يقتل فى نفوسهم الحقد والضغينة إذ أصبح صهرهم ، وفعلا آمن منهم كثيرون .

٩ ـ جويرية بنت الحارث بن ضرار . كان والدها سيداً وقائد بنى المصطلق وهو الذى كان يجمع الجموع ويؤاب الأعداء لمحاربة محمد عليه السلام . وقد جهز له محمد النبى جيشاً غيوراً وقاتله فى موطنه فهزمهم ، وغنم المسلمون نصرا مؤزرا وغنائم وسبايا كثيرة من بينهم السيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار التى وقعت فى سهم ثابت بن قيس وعرض عليها لو تفتدى نفسها بالمال وطلب منها تسع اواق من الذهب وهو يعلم أنها قادرة على دفعه ولكنها أسيرة وليس معها هذا المال ، وخشيت لو طلبت من ثابت امهالها لترسل إلى أهلها فيضاعف طلبه فلجأت

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستقضيه ذلك المال فقال لها:

ـ هل لك فى خير مما طلبت ؟

وسألته جويرية فى لهفة : وما هو ؟

ـ فقال : أدفع كتابك وأتزوجك .

فقبلت وأجابت : نعم وهى راضية قريرة العين .

ولم تكد تمضى بضع لحظات على اعلان قبول جويرية الزواج من رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى كان كل من المسلمين قد أعتق سبيته أو فك قيد أسيره . وإذا بالسلام يسود الجميع وأسلم بنو المصطلق وصارت جويرية تدعى أم المؤمنين وتعيش مع لداتها السابقات .

١٠ ـ بعد أن تنقل الرسول الأمين عليه السلام من نصر إلى نصر رافعاً لواء الاسلام فى جزيرة العرب أرسل إلى الملوك والأباطرة والأكاسرة برسالات لينشر دين الله فى أرجاء الأرض.

فأرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس وملوك بنى غسان وملك اليمن ونجاشى الحبشة .

ورد المقوقس حاكم مصر رداً جميلا وأرسل للنبى هدايا كثيرة وفى جملتها مارية القبطية، فعرض عليها الاسلام فأسلمت، ومن طريف ما حدث أنها لما دخلت بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معها جنيهات مصرية من الذهب ، ولما أقبل الحسن والحسين سبطى الرسول يسلمان عليها أعطت كلا

منهما بعض الذهب فأخذا منها ما أعطتهما وخرجا وعادا وفى ثوب كل منهما (حجره) ما استطاع جمعه من حصى الرمل (الزلط) وألقياه أمامها فإذا به ذهب مثل الذى أعطته لهما، فأعلنت اسلامها وهى فرحة قريرة العين، وصارت من أمهات المؤمنين وهى التى رزقت ابراهيم من أولاد الرسول عليه السلام.

١١ - هاجرت أم حبيبة - رملة بنت أبى سفيان مع زوجها عبيد الله بن جحش مع من هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة، وحدث هناك أن ارتد عبيد الله بن جحش عن دينه ومات مشركاً وبقيت أم حبيبة بنت أبى سفيان على دينها. ولما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى النجاشى يخطبها له فخطبها له النجاشى ومنحها أربعمائة دينار. وكان لهذا الزواج أثر كبير فى نفس أم حبيبة وفى نفس أبيها أبى سفيان عدو محمد عليه السلام فهادنه فى عداوته، مع أنه سبق أن حرض الأحزاب وخرج على رأسهم لمحاربة محمد، وأصبح ابو سفيان صهر رسول الله وصارت أم حبيبة ابنة أبى سفيان من أمهات المؤمنين، مما جعل أبا سفيان يسلم فيما بعد.

١٢ - صفية بنت حيى بن أخطب. كانت سيدة بنى قريظة والنضير وزوج كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق أحد قادة المشركين فى غزوة الأحزاب وأخو سلام بن أبى الحقيق الذى فكر فى تكوين الأحزاب وتأليبها ضد محمد عليه الصلاة والسلام. وقد قتل كنانة بن الربيع فى فتح خيبر لأنه أخفى كنز بنى النضير عن

المسلمين وأقسم أنه لايعلم شيئا . وتوعده النبي محمد عليه السلام أن وجده ليقتلنه فقال نعم ، وأمر النبي بحفر الأرض التي كان يحوم حولها فوجد الكنز وأمر بقتله لانكاره وقسمه الكاذب وكانت صفية بين الغنائم والسبايا ، ولما علم المسلمون بأمرها ومكانتها فى قومها عرضوا على الرسول الأمين عليه السلام أن يتزوجها فقبل ، وعرض عليها أن تسلم ويعتقها إن هى اختارت الله ورسوله .

فقالت : اختار الله ورسوله وشهدت بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأعتقها وتزوجها وبنى بها الرسول وصارت من أمهات المؤمنين . وكان لهذه الزيجة أثر كبير فى نفوس أهل مكة ومن بقى من اليهود .

١٣ ـ ميمونة بنت الحارث بن هلال وأمها هند بنت عوف وكانت زوج مسعود بن عمرو ، وهى أخت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي وهى خالة خالد بن الوليد وكانت فى السادسة والعشرين من عمرها . لما رأت مع قومها ما حدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وقد جذب قلوب المشركين موقف محمد وصحبه وبهرهم قوة الايمان فمالت إلى الاسلام نفوسهم ، وكانت ميمونة هذه ممن شاهدوا ماكان من أمر المسلمين فأعلنت رغبتها على من حولها وذهب ، العباس ابن عبد المطلب إلى الرسول عليه السلام وخاطبه فى أمرها

وأنها آمنت وطلب منه أن يتزوجها فقبل الرسول ورغب فى زواجه منها .

وكان زواج محمد عليه الصلاة والسلام بالسيدة ميمونة بنت الحارث خيراً وبركة على الاسلام والمسلمين ، إذ ما كاد ركب محمد يغادر مكة بعد أن اعتمر هو وصحبه ورجع إلى المدينة حتى وقف خالد بن الوليد ابن أخت ميمونة وفارس قريش يقول :

« لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا بشاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه » وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وصارا علمين من أعلام المسلمين .

وهؤلاء النسوة جميعاً رضوان الله عليهن ضمهن النبى محمد عليه الصلاة والسلام فى بيته وهن أمهات المؤمنين كما لقبهن الله العزيز الحكيم وفضليات النساء وهن اللائى أنزل الله فيهن قول الله سبحانه مخاطبا نبيه : « لا يحل لك النساء من بعد . ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ، إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا » .

ولم يشرع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الزواج بعد هذا الأمر وكان ببيته بعد هذا الأمر من أمهات المؤمنين الأحياء تسع وهن : سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وهند أم سلمة وزينب بنت جحش وريحانة بنت عمرو

ورملة بنت أبي سفيان وصفية بنت حيي بن أحطب وميمونة بنت الحارث رضى الله عنهن جميعا . عدا من مات من قبل وهن : السيدة خديجة بنت خويلد والسيدة زينب أم المساكين والسيدة مارية القبطية .

يقول الأستاذ العقاد :

« ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها هذا سواء الفطرة لا عيب فيه . وما من فطرة هى أعمق فى طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى ، فهى الغريزة التى تلهم الحى فى كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى .

أرأيت إلى السمك وهو يعبر الماء الملح فى موسمه المعلوم فيطوى ألوفا من الفراسخ ليصل إلى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه . أرأيت إلى العصفور وهو يبنى عشه ويعود من هجرته إلى وطنه ؟ أرأيت إلى الزهر وهو يتفتح ليغرى الطير والنحل بنقل لقاحه ؟ أرأيت إلى سنة الحياة فى كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هى سنتها إن لم تكن هى سنة الألفة بين الجنسين وأن يكون سواء الفطرة إن لم تكن على هذا السواء؟

فحب المرأة لا معابة فيه . هذا هو سواء الفطرة لا مراء ، وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه ، وحتى

يشغل المرء عن غرضه وحتى يكلفه شططا فى طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطباع.

فمن الذى يعلم ما صنع النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته ثم يقع فى روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟ من من بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدولة الاسلامية ؟

ومن ذا الذى يقول أن هذا عمل رجل مشغول ؟ عم شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد فى مسعاه ؟ فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص .

وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب ، ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام إذن هى الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة ولم يخلقوا نابذين لها ، ولا منبوذين منها . فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور . وأعجب شيء أن يقال عن النبي أنه استسلم للذات الحسن وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها .

فقد شكون - على فخرهن بالانتماء إليه - أنهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة . واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجم النبي وهمّ بتسريحهن أو تخييرهن بين

لصبر على معيشتهن أو التسريح .

وذهب إليه أبو بكر يوماً يستأذن عليه فوجد الناس جلوساً لا يؤذن لأحد منهم ثم دخل أبو بكر وعمر من بعده فوجد النبي عليه السلام جالساً وحوله نساؤه واجما ساكنا ، فأراد أبو بكر أن يقول شيئا يسرى عنه . فقال : يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولى كما ترى يسألنني النفقة !!

فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ويقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئا أبداً ليس عنده .

ثم اعتزلهن الرسول شهراً أو تسعة وعشرين يوما فنزلت بعدها الآية التى فيها التخيير وهى :

« يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » . هنا طلب الخيار بين الحياة الدنيا ومتاعها وزينتها وبين الله ورسوله وما أعده للمحسنات من جنات وما فيها من نعيم دائم وهو أعظم بكثير مما فى الحياة الدنيا ومتاعها . فبدأ رسول الله بعائشة فقال لها : ياعائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب الا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك . قالت : وما

هو يا رسول الله ، فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها علام يدل هذا ؟

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات . أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟ أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الانفعال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين . وهم موقنون أن ارادة الرسول من ارادة الله . وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال أنه كان يفرط فى ميله إلى النساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سنته أو يخالف مايحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه .

لم يكلفه شيئا من ذلك ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات فى طعامه ومعيشته وفى ميله إلى نسائه فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسوقه ضريبة مفروضة عليه . ولو كانت هذه الضريبة بسطة فى العيش قد ينالها أصغر المسلمين . ولا شك فى قدرة النبى صلى الله عليه وسلم عليها لو أراد ثم يقول : نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك

ويقنع مع هذا بعيشة الفقراء ، ثم يقال أنه رجل غلبته لذات حسه . ونرى الرجل تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحلين بها لعينيه ثم يقال أنه رجل غلبته لذات حسه .

ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف والقناعة على ارضاء نسائه بالتوسعة التي كانت في وسعه ثم يقال أنه رجل غلبته لذات حسه . ثم يقول : كان معروفاً من صباه إلى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس في ريعان صباه . ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح ، بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة . وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات ، تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت، يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات ثم يقـــول : ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بارضاء شهواته أن يجمع النبي إليه تسعا من الفتيات اللاتى اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية .

ويقول الأستاذ العقاد : كان اختيار النبي كله على حسب حاجة زوجاته إلى الإيواء الشريف ، أو على حسب المصلحة الكبرى التي تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه ، ولا استثناء في هذه

الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته حتى التى بنى بها فتاة بكراً موسومة بالجمال وهى السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه

وهذا النبى صلى الله عليه وسلم اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق فى غير مشقة عندهم ولا معابة . وأنه بقى إلى سن الخامسة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر والفتيات ، ولما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى نحو الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين .

وتعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية بالنسبة للنبى عليه السلام أنه لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحاً يختاره من يختاره وله مندوحة عنه ، وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة فى بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات

ففى حياة محمد صلى الله عليه وسلم كان بناؤه بنسائه خيراً من الاخلاء بينهن وبين التأيم والمذلة والرجعة إلى الكفر والضلالة وكان خيراً من قطع تلك الأصرة التى وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل فى نفع الدين والمتدينين به. وهى ضرورة يلجأ إلى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة بل أمم تمارس حياة الدنيا وكل امام عليم بطبائع الناس .

الزواج عند العـــرب

كان التزواج يتم عندما يرى شاب فتاة ويرغب فى نكاحها يذهب مباشرة إلى أبيها أو خالها أو ولى أمرها ويخبره ببغيته فإذا قبل يقول : أنكحنى فلانة إن كان يعرف اسمها

أو يقول : أنكحنى ابنتك !

فيجيبه : أنكحتكها

ثم يسأله : قبلت ؟

فيجيبه : قبلت !

ثم يصدق العريس عروسه ببدرة من المال ويتم الزواج .

وكان الرجل يتزوج عددا من النساء دون تحديد قد يصل العشرين أحيانا ولم يكن للفتاة أو للمرأة أن تختار بعلها أو تستشار وإنما كان الرجل هو كل شيء كالحاكم المطلق لا يرجع القول لديه ، والمرأة لخدمة زوجها وأولادها ، ولم تكن المرأة ترث قبل الاسلام ، وإنما كانت تعتبر من المتاع وهى لمن ألقى عليها رداءه حتى لو كان ولدها أو ولد زوجها ، وله أن يتزوجها أو يزوجها لمن يشاء ويأخذ هو صداقها أو يجعلها فى بيته ملك يمينه حتى تموت .

الأخدان

الخدن هو الصديق أو الرفيق . وكان من النساء من تتخذ لها أخداناً عددا من الرجال ، أربعة أو عشرة أحيانا وتعاشرهم

ويعاشرونها . وإذا حملت ووضعت تجمع أخدانها فى اليوم السابع وتتفحص وجوههم فمن وجدته يشبه هذا المولود نسبته إليه وقالت له هذا ولدك فلا يتخلى عنه ويتكفل به ، وكانت هذه فى فئة من النساء قليلة ولم تكن المخادنة من النساء الشرائف والكرائم اللاتى ينتسبن إلى كبار القوم وأشراف الرجال وإنما كان يفعل ذلك من النساء الأماء والحقائر من عامة الناس . وحدث يوما فى الاسلام أن اجتمعت نسوة وكان من بينهن هند زوج أبى سفيان بعد اسلامها هى وزوجها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مما نصحهن به أن قال ما معناه :

أقمن الصلاة وصمن رمضان وأطعن أزواجكن ولا تزنين .

فقالت هند : أتزنى الحرة يارسول الله ؟ إشارة إلى أن الحرة التى ليست من الرقيق أو الأماء والتى هى من علية القوم ومن كرائم السيدات فهى لا بد أن تكون عفيفة تأبى الرجس وما يدنس شرفها أو يخدش عرضها . وكانت تقوم فى الجاهلية الحروب للدفاع عن الأعراض .

وهند التى كانت فى جاهليتها عدوة الاسلام والمسلمين وهى بنت عتبة الذى كان من ألد أعداء النبى عليه السلام ، وقد قتله يوم بدر الحمزة بن عبد المطلب عم النبى ولما مات الحمزة مقتولا يوم أحد شجت بطنه هند وأخرجت أحشاءه وأكلت كبده انتقاما لأبيها عتبة .

وتريد هند بنت عتبة أن تعلن أن أولئك الزانيات وذوات الأخدان لسن أحرارا شريفات عفيفات النفس من بيت رفيع شريف الأصل، ومن قوم كرام لايقبلون الضيم أو العار يلحقهم أما الموتورات أو اللاتى لاعائل لهن فيقودهن هواهن وتغوى

وأد البنـــات

الوأد دفن البنات أحياء حتى الموت ، ووأد البنت دفنها حية فى أى سن وكان يغلب دفنها عند الولادة وكان وأد البنت فى بنى كندة . ويحكى أن أحد ملوك كندة قبل الاسلام حارب كسرى ملك الفرس وانتصر عليه كسرى وغنم منه غنائم وسبا سبايا من بينهن ابنتى ملك كندة . ولما طلب ملك كندة هذا من كسرى ابنتيه قال له كسرى أرسل رسولك يخيرهما فى العودة فإن قبلتا عادتا وإلا فهما من السرايا . فلما ذهب الرسول وخير البنتين الأسيرتين فى العودة إلى أبيهما أو البقاء فى بيت كسرى ، فقبلت احداهما ورفضت الأخرى وبقيت فى قصر كسرى ، وكانت على كبير من الجمال وكان يحبها أبوها ، ولما علم أبوها بذلك أقسم ليئد كل بنت تولد له ، وشاع هذا العمل بين القساة من قبيلته وغلاظ القلوب من الأغنياء أو الفقراء . وانتشر عند جفاة العرب حتى فى أهل مكة خوفا من العار الذى تجلبه البنت لأبيها ، أما الكرام وعامة الناس فلم يفعلوا ، بل كرهوا ولادة البنات وأظهروا ذلك

بغيظهم إذا بشر أحدهم بولادتها ويتوارى من القوم من سوء ما بشر به كأنه ارتكب عاراً أو أصابه ما يشينه . وفى هذا يقول الله تعالى : « ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » . ذلك أنهم كانوا يفرحون إذا بشر أحدهم بولد فتقام الأفراح وتقدم الأطعمة ويأتى كبار القوم للتهنئة لأن الولد ساعد والده وفارس قومه وبه يكثر عدد القبيلة ويتباهون بكثرتهم على القبائل الأخرى . وكانوا يتفاخرون بذلك فى أشعارهم فيقول بعضهم فخورا بمولود ذكر :

وليس يهلك منا سيد أبدا ألا افتلينا غلاما سيدا فينا

(افتلينا ـ فطمنا)

ويقول متكاثرا :

أنى لمن معشر أفنى أوائلهم قتل الكماة ، ألا أين المحامونا

لو كان فى الألف منا واحد فدعوا من فارس خالهم أياه يعنونا

ويقول آخر متفاخرا بالمولود الذكر الجديد :

إذا بلغ الفطام لنا وليد تخر له الجبابر ساجدينا

ولو شاع هذا العمل بين كل العرب عامتهم وخاصتهم لانقرضوا . وإذا حدث هذا الفعل عند الفقراء كان الدافع الفقر ، وتمكن ذلك منهم لانحطاط قيمة المرأة عندهم ويوسوس لهم الشيطان

بخواطر تخوفهم من وقوع الفتاة والنساء فى الأسر أيام الحروب وما أكثرها قبل الاسلام . ثم حرم ذلك الفعل الاسلام بتحريم قتل النفس بغير حق ونزل قرآن بذلك التحريم وصور جريمة الوأد فى أقسى صورة وحرمها بطريق التأثير فى النفس فقال مستفهما باستفهام يفيد الزجر والتوبيخ فقال :

ـ وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ؟

جاء الاسلام فامتنعوا جميعاً عن هذا العمل السيء، وأعطوا المرأة حقها والحقوق التى اكتسبتها المرأة بنزول القرآن وبعثه محمد عليه السلام وصار لها حق الارث ولها حق المشورة فى اختيار بعلها والتصرف فى مالها . وهى التى قال فيها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: اتقوا الله فى الضعيفين ، المرأة واليتيم ، وبصفة خاصة باعتبارها الأم قال : « الجنة تحت أقدام الأمهات »

حديث الافك

١ . تمهيد لحديث الافك

٢ ـ حديث الافك ورواياته

٣ ـ نزول القرآن ببراءة عائشة رضى الله عنها (سورة النور)

تمهيد حـــديث الافك

انتصر محمد صلى الله عليه وسلم فى غزوات كثيرة على أعدائه ونصره الله على قريش ونصره على الأحزاب وقساة العرب . واستقر سلطان محمد عليه السلام فى المدينة وزاد عدد المؤمنين وانتشر ربوع الأمن واستمر المسلمون فى حياتهم الوادعة ولكن اضطرب اليهود لاستقرار محمد وصحبه وعلو لواء المسلمين رغم أنف المشركين ودخل فى دينه خلق كثير من العرب وحسن إيمانهم وحقد اليهود على المؤمنين وأخذوا يحيكون مؤامرة جديدة ، وجاءت الأنباء إلى محمد عليه السلام بأن بنى المصطلق وهم جماعة من خزاعة يرسمون خطة لاغتيال رسول الله فأرسل الرسول عيونه يستطلعون الخبر فجاءته الأنباء مؤكدة له صدق ما سمع ومحذرة من خطورة المؤامرة التى رسمها «الحارث بن ضرار» سيد بنى المصطلق الذى كان يجمع الجموع ويؤلب الأعداء .

واستقر رأى الرسول عليه السلام أن يجعل تأديب بنى المصطلق عبرة لبقية اليهود ، فجمع جموعه ونادى للجهاد فخرج معه جيش مؤمن قوى بعدته عزيز بإيمانه .

وكان من عادة الرسول أن يقترع بين نسائه ليأخذ معه إحداهن فى غزواته . ولما اقترع فى هذه المرة خرج السهم مشيراً إلى السيدة عائشة رضى الله عنها . وأسرعت تستعد للرحيل وأعد

هودجها . وما أن تحرك الجيش الغازى لتأديب اليهود ، حتى
كانت قد لحقت به وسار بها هودجها فى مؤخرة الجيش .

ورأى الرسول عليه السلام أن ينزل برجاله أولا عند ماء
المريسيع ليستولى على البئر ، فيضمن سقاية جيشه ويتحكم فى
ماء البئر الذى يشرب منه العدو وفى الطريق الموصلة إليه ويحول
بذلك دون تزويد بنى المصطلق بماء البئر إن هم أرادوه أو وصول
مساعدة نجدة لهم من الخارج . وبدأ الحصار الذى ضربه محمد
عليه السلام على أعدائه يؤتى ثمرته . ومر الوقت ونفذت ميرة
اليهود فتحملوا الجوع وتهالكوا أمام قسوة العطش ، فخرجوا
من حصونهم ووقعت الواقعة بين المسلمين واليهود وحمل المسلمون
حملة صادقة وانهارت قوى اليهود وفروا طلباً للنجاة وأصبحت
أموالهم وما تركوا غنائم وأسلابا للمجاهدين الظافرين ، وظفر
المسلمون بأفياء كثيرة . وتملكت الفرحة قلوب المسلمين
ووجدوا أنفسهم بعد فتح الله أمام غنم مزدوج ، نصر مبين وغنائم
وافرة ثم عودة سريعة إلى مدينة الرسول حيث الأهل والأحباء

وضرب المسلمون معسكرهم فى سهل فسيح ، وراح المقاتلون
يتلمسون لأنفسهم الراحة لاستئناف العودة ، فى الوقت الذى
تم فيه جمع الفىء بما حوى من أسلاب ونفائس خلفها اليهود
لتوزيعها على المنتصرين . وفى هذا الوقت الذى سادت فيه الألفة
قلوب الجميع بما نالوا من توفيق شامل ، كاد رجلان من المسلمين

أن يحدثا ثورة لو قدر لها أن تتم ويتعالى أوراها ، الرهيب لبعثت الجاهلية من مراقدها ولذكرت فرسان الله بماضى بشع أنساهم الإسلام اياه . فقد حدث على الماء مشاده بين رجلين أحدهما من الخزرج وآخر من أتباع عمر بن الخطاب . وكاد عبد الله بن أبى سلول أن يزيد أوارها ولكن تدخل الرسول عليه السلام وسادت السكينة وعاد المتخاصمون إلى صوابهم ، وأمر الرسول بلالا لينادى فى المسلمين أن يشدوا رحالهم . واستمع المسلمون إلى الأمر بالرحيل فى ساعة ما توقعوها ، ووقت لم يعتد محمد عليه السلام أن يؤذن فيه لرجاله بالرحيل .

ولقد كانوا فى غبطة وسعادة وهم يستروحون نسائم النصر ويستعرضون الأسلاب والغنائم والسبايا ويتلمسون لأنفسهم بعض الراحة من عناء الجهاد ليستأنفوا رحيلهم عائدين إلى المدينة ولكن فى غير هذا الوقت الشديد القيظ . وتلفتوا حوالهم فى دهشة يتساءلون ولم يدر أحد منهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أراد أن يحسم الخطر فى سرعة وأن يدرأ شرا قد ترددت أصداؤه هنا وهناك . وتسارع جند الله أن ينفذوا أمر الرسول ويستعدوا للعودة ، فى الوقت الذى لم يرتح فيه بعض كبار الأنصار بالنسبة إلى ماحدث ، وكأنما رابهم صدور الأمر فى هذه الساعة وأحسوا أن وراء الأكمة ما وراءها وبدأت جلبة الرحيل تسود المعسكر الذى كان هادئا مستقرا منذ لحظات وأسرع المسلمون

إلى رواحلهم يعدونها فى سرعة ومعهم ما حملوا من غنائم بنى المصطلق وأسراهم وسبيهم ، وانتظم عسكر المسلمين وشغلتهم حركة الرحيل . وكان طبيعياً أن يتم هذا الأمر كله فى سرعة خاطفة ، وكان طبيعيا أن صداه لم يتعد المنطقة التى كانت تعج بالرجال ، لهذا لم تسمع أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بما حدث ولم تعرف أن رسول الله قد أذن فى القوم بالرحيل. وفى الوقت الذى كان الجيش فيه فى صخب وجلبة واستعداد للسير ، كانت عائشة بنت أبى بكر تغادر خيمتها القصية لقضاء حاجتها فى مكان موغل فى البعد عن القوم وعما كانوا فيه .

وكان قد نزل الحجاب فى قول الله سبحانه وتعالى :

« يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً . إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد

الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ، .

ويقول « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام ، غير ناظرين أناه . ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحى من الحق . وإذا سألتموهن متاعاً فاسئلوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم ولقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما » .

ففى هذه الآيات فرض الحجاب على نساء النبي الطاهرات ووعيد لمن خالف من المؤمنين . ولم يكن أحد من المسلمين يتجاسر على الاقتراب من منازل رسول الله ، كما لم يكن هناك من يستطيع أن ينقل إلى أم المؤمنين عائشة فى خيمتها البعيدة صورة للعاصفة الهوجاء التى اجتاحت معسكر المسلمين ، وكان من جرائها أن أمر الرسول بالرحيل .

لم يكن أحد يستطيع أن يقترب من خيمة عائشة إلا زوجها ولقد كان محمد فى شاغل عن ذلك ، كما أنه صلى الله عليه وسلم كان فى موضع لم يكن من السهل عليه أن يتركه ليعود إلى حيث عائشة ليحمل لها النبأ المثير .

لهذا ، ولثقة عائشة بأن التفكير فى الرحيل فى مثل هذه الساعة

أمر بعيد الاحتمال ، تركت الخيمة وخرجت وهي آمنة مطمئنة تتلمس مكاناً بعيدا جدا تقضي حاجتها فيه ثم تعود . وسارت أم المؤمنين وسارت ، حتى أحست في النهاية أنها أصبحت بعيدة البعد الكافي عن القوم . ومر بها الوقت وهي هادئة مطمئنة ولا تساورها فكرة ، ولا يداخلها إحساس بما حدث وما كان من رحيل الجيش . وأثناء عودتها حدث أن تلمست عقدا لها من ظفار كان حول رقبتها فلم تجده إذ نسل منها دون أن تشعر فعادت أدراجها تبحث عنه في الطريق الذي سلكته لقضاء حاجتها .

في الوقت الذي تحركت فيه طلائع المسلمين المسرعة تحرك معها هودج عائشة وحملت خيمتها من مكانها في أثر العائدين . وقد ظن حراسه أن أم المؤمنين في داخله .

وبلغ المسلمون المدينة تسبق بعضهم فرحة النصر ، وتسود نفوس القلة المنافقة سحائب كدر وخشية ، لأن الله حرمهم ثمار حمية الجاهلية التي ماتت قبل أن تبعث . وكان رسول الله حذرا فطناً حاسماً في قضائه عليها عند ماء المريسيع

وسارع المظفرون إلى دورهم ، ثم عادوا مسرعين إلى حيث كانت الأسلاب والغنائم والسبايا ، لينال كل منهم نصيبه بحسب درجته في الجهاد وحضر رسول الله فيء الله عليه وعلى رجاله وراح يقسم ويسهم ويوزع . وتسلم كل مسلم نصيبه وعاد إلى بيته فرحاً بما نال . وفي الوقت الذي رحل فيه جموع المسلمين

ودخلوا المدينة وركنوا إلى أنفسهم واحتوتهم الدور ، كانت عائشة وحيدة فى الصحراء وهى تبحث عن العقد الذى فقدته حتى وجدته ، فراحت تجمع حباته المتناثرة وتلتقطها من الرمال حتى استيقنت أنها لم تفقد منه شيئا فيممت وجهها عائدة إلى هودجها وهالها أنها لم تجد الخيمة أو الهودج ولم تجد أحدا على الاطلاق ولم تلبث أن تبينت الحقيقة واضحة عندما أشرفت على بقايا العسكر الذى ارتحل . ووجدت فعلا أن القوم رحلوا ، وأنهم تركوها ظانين أنها دخلت هودجها ساعة أذن المؤذن بالرحيل.

ولم يكن غريبا أن تتباطأ أم المؤمنين عائشة فى مكانها وأن تجمع حبات العقد فى هدوء ، إذ لم يكن هناك مايتعجلها كما لم يكن يخطر ببالها أن يحدث حادث يرغم الجيش على الرحيل فجأة دونها

وما تصورت أم المؤمنين عائشة أنه قد حدثت حوادث منذ تركت خيمتها وجاءت إلى ذلك المكان البعيد ، وأن أوامر صدرت من الرسول بالرحيل السريع ، وأن الحماسة وفرحة العودة إلى الديار لتقسيم الغنائم ورؤيا الأهل قد استخفت بالقوم فأعدوا عدتهم .

ولم يكد صفوان يبدأ بحثه التقليدى فى أرض المعسكر حتى راعه أن شهد عن بعد شبحاً يتحرك . ولما ذهب ليتبينه وجد نفسه أمام أم المؤمنين عائشة ، وكان يراها قبل أن يفرض الحجاب فتراجع وهو المؤمن الصادق وغض بصره كما أمره الله . ووجد

نفسه يتمتم فى دهشة ، وأن واجبه أن يحترم مكانها ويقدر صمتها وقد أفسح لها الطريق لتركب بعيره فيسرع بها عائداً إلى المدينة فأناخ بعيره بعد أن قربه منها ونادى أن اركبى ثم تأخر ووقف أمام مقود الجمل مولى ظهره إليها . وركبت أم المؤمنين وأخذ صفوان بمقود البعير ثم انطلق به مسرعاً إلى المدينة .

وكان هذا فعلا هو ما أقدم عليه صفوان بن المعطل وهو الذى كان يوكل إليه أن يتتبع مؤخرة الجيش ويجوس مكان تعريسه حتى يجمع ما تركه المعسكرون ويعيده إلى أصحابه عند عودته واللحاق بهم فى المدينة .

ودخل صفوان بن المعطل المدينة وعائشة على ظهر بعيره ، ونظر عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين والذى يتمنى أن يصيب محمداً عليه السلام أو أحداً من أصحابه السوء . فما كاد يرى ابن سلول صفوان يقود بعيره وعليه أم المؤمنين عائشة حتى استيقظ شبح الحقد فى نفسه وثار كمينه ، ووجد الفرصة سانحة ليطعن محمدا الطعنة التى تودى بكرامته .

وصاح ابن سلول رأس المنافقين فى المهاجرين والانصار صيحة فيها التشفى وفيها صورة من نفسه الخبيثة وقال : أيها الناس! ظعينة نبيكم قد عادت فى ركاب رجل، والله مانجت منه ولا نجا منها.

فهو عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين يكره سيد بنى هاشم منذ وطئت قدماه أرض يثرب والتف حوله الناس ، وقد

جاءهم بدين الحق والهداية الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وانفضوا من حول عبد الله بن أبى بن سلول ، هذا الذى كان يطمع فى أن يتوج نفسه ملكا عليهم ، وتركوه نهباً لنيران الغيرة والحقد على محمد صلى الله عليه وسلم . وقد أخذت المشرك العزة بإثمه فارتاحت نفسه إلى هذه الوسيلة من وسائل التنفيس عن الحقد والكراهية اللذين يؤججان صدره ، فراح يبالغ فى تهويل هذه الفرية ، وارتفع صوته البغيض عندما تجمع الناس حواليه ، يقول :

- إنى أقسم لكم . . أنها ما نجت منه ولا نجا منها .

وسارت هذه الأكذوبة فى سرعة وانتشرت كوهج نيران فى جوف الليل المظلم ، سرت مسمومة كسرى غبار قذر أثارته عاصفة هوجاء فى بطن الصحراء ، فكانت فى الآذان وقرا كما كان الغبار فى العيون قذى . ولم يمض وقت طويل حتى رن صداها فى جوانب المدينة ، فذعر المسلمون وتعوذوا واستولى عليهم الغم والكرب . وراح كل ينظر إلى صاحبه وهو لا يصدق حدوث هذا الإثم الذى لا يرضاه الله ورسوله .

وفى الوقت الذى وصلت فيه عائشة أم المؤمنين المبرأة مما يقوله الناس إلى بيتها خالية الذهن غافلة عما حدث ، وكان الخبر المسموم قد انتشر فى سرعة البرق . وبدأ القوم يتهامسون عن عائشة المتخلفة عن الركب وعودتها مع صفوان بن المعطل على بعيره .

أتهمت عائشة رضى الله عنها وكان افتراء عليها وافكا وقع فيه المرجفون ظناً ورجماً بالغيب . وكان الافك قولا يتقول به المبطلون لا دليل له ولا سند معه ولا شيء فيه بل يدعو للريب بل هو قول باللسان من مرجف منافق يتحسس العيب فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجده ولم يجد له سندا أو دليلا سوى القول على هذه البتول المطهرة بنت أبى بكر الصديق ،شهد الناس له فى الجاهلية بالعفة وعلو الهمة . فكانت ابنته طاهرة مطهرة من أصل رفيع لا يقبل الهوان ولا يميل لفسق أو يقربه ، فعائشة رضى الله عنها من بين نساء النبي عليه الصلاة والسلام اللاتى سماهن الله سبحانه بأمهات المؤمنين ، أى أن المؤمنين الذين طهرت قلوبهم وصفوا بالإيمان . هؤلاء حرم عليهم الرجس وسماهن الله أمهات المؤمنين فى قوله «وأزواجه أمهاتهم» . ويقول الله تبارك وتعالى فى سورة الأحزاب « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم . وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » .

يقول ابن كثير: قد علم الله تعالى شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم ، لأن نفس الإنسان يهمز لها الشيطان ويقويها فهى بيت قريب للشيطان ، والشيطان عدو الإنسان يعمل على معصية الله ويزين له المعاصى. أما محمد الرسول

ينصح الانسان بما ينفعه وما يقربه إلى ربه ويعلمه ما يستطيع به أن يحارب به الشيطان ، فيكبح جماح نفسه فيؤمن بربه ويعمل لمرضاته ، فيكون محمد صلى الله عليه وسلم أولى للمؤمنين من أنفسهم التى بين جنوبهم .

وفى الصحيح ، صحيح البخارى ، أن عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شى إلا من نفسى. فقال صلى الله عليه وسلم : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلىّ من كل شى حتى من نفسى . فقال صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر . ولهذا قال الله تعالى فى هذه الآية «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم»

وقال البخارى عند هذه الآية الكريمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم» . وقوله تعالى : «وأزواجه أمهاتهم» ، أى أن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين فى الحرمة والاحترام والتوقير والاكرام والاعظام .

فعائشة رضى الله عنها إحداهن ولها على المؤمنين ما لأمهاتهم من حقوق واحترام . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائط ، فلا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها ولا

يستطب بيمينه » . ويقول الله تعالى فى سورة الأحزاب :

« يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض . وقلن قولا معروفاً ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى . وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً » .

يقول ابن كثير : هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك . فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن فى الفضيلة والمنزلة . ثم قال تعالى « فلا تخضعن بالقول » يعنى ترقيق القول إذا خاطبن الرجال . لهذا قال تعالى « فيطمع الذى فى قلبه مرض » أى دغل ونفاق « وقلن قولا معروفاً » قولا حسناً جميلا ، معروفاً فى الخير ، أى أنها تخاطب الرجال الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ولا بكلام كما تخاطب زوجها . وقوله تعالى « وقرن فى بيوتكن » أى الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم « إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى فى قعر بيتها » ، وقوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل

البيت ويطهركم تطهيرا » . نص فى دخول أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى أهل البيت ههنا . لأنهن سبب نزول هذه الآية . وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح وقوله تعالى « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » أى واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم فى بيوتكن من الكتاب والسنة قال قتاده وغير واحد : واذكرن هذه النعمة التى خصصتن بها من بين الناس . إن الوحى ينزل فى بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة رضى الله عنها الصديقة بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة وأحظاهن بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة . فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى فى فراش امرأة سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء لأنه لم يتزوج بكرا سواها ، ولم ينم معها رجل فى فراشها سواه صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها فناسب أن تخصص بهذه الميزة وإن تفرد بهذه المرتبة العالية العلية . ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية . وقوله تعالى « إن الله كان لطيفا خبيرا » . يقول ابن كثير : أى ذا لطف بكن إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة وهى السنة وكان الله خبيرا بكن إذ اختاركن زوجات لرسوله ، وقال بمنن عليهن برحمته الواسعة « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » فهو خبير بموضعها .

جاءت قصة هذا الحديث فى عدة روايات منها :

أولا : قال معمر بن راشد عن الزهرى، كان حديث الافك فى غزوة المريسيع وهى غزوة بنى المصطلق ، قال ابن اسحاق ، وذلك سنة ست من الهجرة ، وقال موسى بن عقبة سنة أربع .

كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم كلما تأهب لغزوة يقرع بين نسائه فمن يخرج سهمها يصطحبها معه . وفى هذه الغزوة خرج سهم عائشة وكانت فألا حسنا على البطل الغازى فعاد من غزوته منتصراً كما يعود فى كل مرة تخرج فى صحبته فى غزوة من غزواته وفى الطريق أناخ العسكر وهم عائدون ، فباتوا بعض الليل ، ثم أذن فيهم بالرحيل فارتحلوا وما يخطر ببال أحدهم أن سيدة قد تخلفت حيث أناخوا . وبلغ الركب المدينة فى مطلع الصبح والمدينة إذ ذاك تهزج بأغانى النصر واقتيد بعير أم المؤمنين إلى مناخه أمام بيتها . وأنزل الهودج فى رفق ، فإذا أم المؤمنين ليست فيه .

ولبث الرسول عليه السلام وصحبه ساعة من نهار حائرين قلقين ، وانطلق بعضهم فى الطريق يلتمسون العزيزة الغالية حتى بدت من بعيد تركب بعيراً يقوده رجل عرفوا فيه صفوان بن المعطل السلمى ، واطمأن الرسول أن وجدها بخير وسمع حديثها

عن سبب تخلفها فما أنكر منه حرفاً . ثم آوت إلى فراشها و نامت هادئة والمدينة يقظى لا تنام . وحدث أن قوماً من ذوى الهوى على رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول الذى ما برىء من حقده على الرسول عليه السلام وما فتىء يكيد له . تلقفوا الحادثة فنسجوا لها ما شاءوا من مفتريات ليشفوا وترهم وأحقادهم . وانتقل حديث الإفك من دار ابن سلول ومن لف لفه إلى أحياء المدينة وردده ناس من المسلمين فيهم حسان بن ثابت شاعر الرسول ومسطح بن أثاثة قريب أبى بكر وموضع بره ، وحمنة بنت جحش ابنة عم النبي وأخت زوجته زينب بنت جحش . وبلغ الحديث أذنى محمد عليه السلام كما بلغ مسامع أبى بكر وأم رومان فصكهما صكا . ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يواجه عائشة بالشائعة الرهيبة إذ كانت منذ عادت من غزوة بنى المصطلق مقبلة تشتكى شكوى شديدة فظلت لا تدرى ما يقول الناس عنها .

ثانياً : وروى عن الزهرى عن سعيد بن المسيب وعروة ابن الزبير وعلقمة بن أبى وقاص وعبيد الله بن عبدالله بن عقبة ابن مسعود كلهم رووا عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه .

قالت : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها بنى المصطلق فخرج فيها سهمى ، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك

بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما قرب من المدينة نزل منزلا ثم أذن بالرحيل. فقمت حين أذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى وأقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت والتمست عقدى وحبسنى طلبه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى ، فإنى كنت جارية حديثة السن فظنوا أنى فى الهودج وذهبوا بالبعير . فلما رجعت لم أجد فى المكان أحدا فجلست وقلت لعلهم يعودون فى طلبى فنمت . وقد كان صفوان بن المعطل يمكث فى المعسكر يتتبع أمتعة الناس فيحمله إلى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شىء . فلما رآنى عرفنى ، قال ما خلفك عن الناس ؟ فأخبرته الخبر . فنزل وتنحى حتى ركبت ثم قاد البعير . وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج الناس فى ذكرى فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فتكلم الناس وخاضوا فى حديثى وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولحقنى وجع ، ولم أر منه عليه السلام ما عهدته من اللطف الذى كنت أعرف منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول:

كيف تيكم فذاك الذى يريبنى؟

ولا أشعر بعد بما جرى حتى نقهت فخرجت فى بعض الليالى مع أم مسطح لمهم لنا ، ثم أقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين

فرغنا من شأننا. فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح فأنكرت ذلك . وقلت : أتسبين رجلا شهد بدرا ، فقالت وما بلغك الخبر ؟ فقلت : وما هو ؟ فقالت أشهد أنك من المؤمنات الغافلات ، ثم أخبرتنى بقول هذا الافك . فازددت مرضا على مرضى فرجعت أبكى ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كيف تيكم ؟ فقلت ائذن لى أن آتى أبوى . فأذن لى فجئت أبوى . وقلت لأمى ، يا أمة ماذا يتحدث الناس ؟ قالت: يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . ثم قالت : ألم تكونى علمت ما قيل حتى الآن ؟ فأقبلت أبكى ، فبكيت تلك الليلة ثم أصبحت أبكى فدخل علىّ أبى وأنا أبكى . فقال لأمى ما يبكيها ؟

قالت لم تكن علمت ما قيل فيها حتى الآن . فأقبل يبكى . ثم قال : اسكتى يا بنية

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه وأسامة بن زيد واستشارهما فى فراق أهله . فقال أسامة يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا . وأما على فقال لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وأن تسأل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة جاريتى وسألها عن أمرى . فقالت بريرة يا رسول الله والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن

عجين أهلها حتى تأتى الداجن فتأكله . قالت فقام النبى صلى الله عليه وسلم خطيباً على المنبر . فقال يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ، يعنى عبد الله بن أبى . فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى. فقام سعد بن معاذ فقال أعذرك يا رسول الله منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من اخواننا الخزرج فما أمرتنا فعلناه . فقام سعد ابن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحاً ولكن أخذته الحمية . فقال ابن معاذ ، كذبت والله لا تقدر على قتله. فقام أسيد ابن خضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال كذبت لعمر الله لنقتلنه وإنك لمنافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا . قالت : ومكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى. فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس . قالت ، ولم يجلس عندى منذ قيل فى ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى شيئاً . ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا تاب تاب الله عليه . قالت فلما قضى رسول الله

صلى الله عليه وسلم مقالته ، فاض دمعي ، ثم قلت لأبي أجب عني
رسول الله . فقال والله ما أدري ما أقول . فقلت لأمي أجيبي
عني رسول الله ، فقالت والله لا أدري ما أقول . فقلت وأنا
جارية حديثة السن ، ما أقرأ من القرآن كثيراً . إني والله لقد
عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به ،
فإن قلت لكم أني بريئة لا تصدقوني ، وإن اعترفت لكم بأمر
والله يعلم أني بريئة لتصدقوني ، والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا
كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه (فصبر جميل والله
المستعان على ما تصفون) قالت ثم تحولت واضطجعت على فراشي
وأنا والله أعلم أن الله تعالى يبرئني ، ولكن والله ما كنت أظن
أن ينزل في شأني وحياً يتلى ، فشأني كان أحقر في نفسي من أن
يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله
في النوم رؤيا يبرئني الله بها . قالت فوالله ما قام رسول الله من
مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي على
نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي ، حتى أنه ليتحدر
عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل الوحي ، فسجي
بثوبه ووضعت وسادة تحت رأسه ، فوالله مافرغت ولا باليت
لعلمي ببراءتي . وأما أبواي فوالله ما سري عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم حتى ظننت أن نفسيْ أبوي ستخرجان فرقاً من أن
يأتي الله بتحقيق ما قاله الناس ، فلما سري عنه وهو يضحك ،

فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أبشرى يا عائشة ، أما والله لقد برأك الله » ،

فقلت : بحمد الله لا بحمدك ، ولا بحمد أصحابك .

فقالت أمى : قومى إليه .

فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله الذى أنزل براءتى

وقد أنزل الله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك ،عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم . والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك ، هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة . والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم » العشر آيات (سورة النور) .

فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد هذا ، وكان ينفق عليه لقرابته منه وفقره . فأنزل الله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

فقال أبو بكر: بلى ! والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع النفقة على مسطح .

قالت عائشة رضى الله عنها ، فلما نزل عذرى قام رسول الله (ص) على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن . فلما نزل ضرب عبد الله بن أبى بن سلول و مسطحاً و حمنة بنت جحش و حسان « الحد »

وانجلت العاصفة ، وعاد الهدوء يسود كل شىء فى المدينة وقرت نفوس المؤمنين وأخرست كلمات الله المشركين والمنافقين وانتهى حديث الافك ببراءة عائشة التى أقرها الله وأنزل فيها القرآن وعادت عائشة رضى الله عنها البريئة الطاهرة إلى بيتها من مساكن رسول الله محمد عليه السلام زوجها وإلى مكانتها من قلبه .

رواية أخرى :

خرج النبى (ص) لحرب بنى المصطلق وللقضاء على تحزبهم عليه واعلاء كلمة الله ، ولدعوتهم إلى دين الله بعد انتصاره عليهم وبعد أن تم له النصر وغنم جيشه منهم غنائم كثيرة

وعاد المسلمون إلى المدينة وتم توزيع الأسلاب والغنائم ،

ورجع الظافرون بفيئهم الذى أتاهم الله اياه ، سعداء وقد قرت عيونهم، وخيم الهـــدوء على البلدة الطيبة . وفى هذا الوقت الذى ركن فيه الجميع إلى أنفسهم واحتوتهم الدور ، كانت عائشة وحيدة فى الصحراء تبحث عن عقدها الذى فقدته حتى وجدته وراحت تجمع حباته المتناثرة وتلتقطها من الرمال حتى استيقنت أنها لم تفقدمنه شيئاً . فيممت وجهها عائدة فهالها انها لم تجد أحداً على الاطلاق مكان المعسكر . ولم تلبث أن تبينت الحقيقة واضحة عندما أشرفت على بقـايا المعسكر الذى ارتحل ، ووجدت أن القوم قد رحلوا وأنهم تركوها ظانين أنها دخلت هودجها ساعة أن أذن المؤذن بالرحيل . وما تصورت عائشة أم المؤمنين ، أنه قد حدثت حوادث منذ أن تركت خيمتها وذهبت إلى ذلك المكان البعيد ، وأن أوامر صدرت من الرسول عليه السلام بالرحيل السريع ، وأن الحماسة وفرحة العودة إلى الديار لتقسيم الغنائم ورؤيا الأهل قد استخفت بالقوم ، فأعدوا عدتهم فى سرعة مذهلة ليرحلوا عائدين

وبقيت عائشة حيث هى فى مكان صامت موحش من الصحراء حائرة لا تدرى ماذا تفعل ، وهل فى استطاعتها اللحاق بالركب؟ أم تبقى حيث تركها النبي والمسلمون ؟

واستبدت الحيرة بعائشة ، وبدأت المخاوف تغالبها وهاجمتها طيوف الوحدة فى قسوة . وألقت مقاليدها للقدر ، ووثقت فى

صميم نفسها أن القوم عند وصولهم المدينة سيتفقدونها فإذا لم يجدوها عاد بعضهم للبحث عنها والعودة بها .

وجلست أم المؤمنين حيث كانت تنتظر ماتجيء به الحوادث بعد ذلك . وأبى الله أن يداخل القلق قلب الصديقة بنت الصديق وأحب الناس إلى قلب رسول الله ، وهاهى ذى نجدته جل وعلا تتبدى فى وصول «صفوان بن المعطل» إلى مكان ارتحال الجيش ليؤدى عمله التقليدى الذى اعتادأن يؤديه دواماً عند كل رحيل وهو السعى فى مكان المعسكر بحثاً عما يكون قد نسيه بعض المسلمين من متاع أو ثياب أو سلاح ليعيده إلى أصحابه .

ولم يكد صفوان يبدأ بحثه التقليدى فى أرض المعسكر حتى راعه أن شهد عن بعد شبحاً يتحرك ، ولما ذهب ليتبينه وجد نفسه أمام أم المؤمنين عائشة ، وكان يراها قبل أن يضرب عليها الحجاب فتراجع وهو المؤمن الصادق وغض بصره كما أمره الله ووجد نفسه يتمتم فى دهشة : ظعينة رسول الله ! ما خلفك ؟ رحمك الله؟ وما الذى أخرك هنا؟ ولم تدر عائشة بماذا تجيب السائل

وأسرع صفوان يتراجع إلى الخلف بعد أن أناخ بعيره وقربه منها وقال لها : اركبي ..

ثم تأخر هو ، وركبت أم المؤمنين عائشة وأخذ صفوان برأس البعير ، ثم انطلق به مسرعا إلى المدينة تاركاً ما جاء من أجله ، فلم يجمع شيئا مما خلفه الراحلون عن معسكرهم وأسرع

بحمله الغالى ليصل إلى مدينة رسول الله عليه السلام .

وأبى المنافق عبد الله بن أبى بن سلول أن يحتوى ظلمة الليل والهدوء المدينة فخرج مع بعض أقرانه من منافقى المدينة ليروجوا عن أنفسهم ويحاولوا نسيان ما كان ، ويمنوا أنفسهم بما يستطيعون أن ينالوه من محمد والمسلمين .

ولكن الله سبحانه فضحه فى قرآن يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة . ووصفه والمنافقين بما هم أهله وحملهم وزر أحقادهم

كان ابن سلول ومن معه حيث هم بظاهر يثرب يتذاكرون فى حقد وكراهية ما ناله محمد من انتصارات متوالية ويراجعها وسط صحابته ثم يأتى شامتا بما كان يتمناه ويظنه القضاء على محمد عليه السلام حين رأى صفوان بن المعطل داخلا المدينة وعائشة على ظهر بعيره . ونظر عبد الله بن أبى سلول ذاك وصاح المنافق فى المهاجرين والأنصار صيحة فيها التشفى وفيها صورة من نفسه الخبيثة وقال : أيها الناس ! ظعينة نبيكم قد عادت فى ركاب رجل والله ما نجت منه ولا نجا منها .

كان ابن سلول يكره النبى محمداً صلى الله عليه وسلم منذ وطئت قدماه أرض المدينة والتف حوله النـاس وتركوا ابن سلول الذى كان يطمع فى أن يتوج ملكا عليهم . وارتاحت نفس هذا المنافق لتهويل الفرية ، وارتفع صوته البغيض عندما تجمع الناس وهو يقول : إنى أقسم لكم أنها مانجت منه ولا نجا منها

وسارت هذه الأكذوبة فى سرعة غريبة وانتشرت كوهج نيران فى جوف ليلة مظلمة ، سرت مسمومة كسرى غبار قذر أثارته عاصفة هوجاء فى بطن الصحراء ، فكانت فى الآذان وقراً كما كان الغبار فى العيون قذى . ولم يمض وقت طويل حتى رن صداها فى جوانب المدينة ، فذعر المسلمون وتعوذوا واستولى عليهم الغم والكرب ، وراح ينظر كل إلى صاحبه وهو لا يصدق حدوث هذا الاثم الذى لا يرضاه الله لرسوله .

وفى الوقت الذى وصلت فيه أم المؤمنين عائشة المبرأة إلى بيتها خالية الذهن مما حدث ـ كان الخبر المسموم قد انتشر فى سرعة البرق . وبدأ القوم يتهامسون من تأخر عائشة عن الركب وعودتها مع صفوان بن المعطل على بعيره ، وصفوان هذا هذا شاب وسيم الطلعة ممتلىء قوة وشباباً ، ولكن العرب عرفوا أن صفوان بن المعطل لم تكن له صفة الرجال ، وأنه كان رجلا « حصوراً » لا يأتى النساء ولا يقربهن أبداً .

وتولى كبر الحديث جماعة ضعفت نفوسهم ووجدوا فيه مادة للتشهير وقد تزعم هذه الفرية ابن سلول وحسان بن ثابت الأنصارى وحمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش ، وقد ظنت أنها بذلك ترضى أختها وتزيدها من قلب رسول الله عليه السلام . وكثر الهمس ووجد عبد الله بن أبى ابن سلول فى هذا الحديث ما يشفى غله ، فأخذ يذيعه وعاونه

مسطح بن أثاثة . وسكت المسلمون حين سمعوا الحديث على مضض ، وانتظروا ما سوف يحدثهم عنه أو يأتيهم به فى أمر الاتهام الغريب . وسكت محمدصلى اللهعليه وسلم ، سكتظاهريآ وفى القلب ما به . كان محمد عليه السلام يحب عائشة وعز عليه أن توجه إليها هذه الطعنة وهى أحب نسائه إليه ، وكان الشك رهيباً وهو على يقين بأن الله ربه لا يمكن أن يخذله .

ولاحظت عائشة أن زوجها يعانى ألما نفسيا قاسيا وتصورت أن انصرافه عنها اهمال لها ، وهى التى ما اعتادت من محمد الزوج الوفى إلا كل حب وحدب عليها .

وكانت عائشة منذ وصلت المدينة ودخلت بيتها تعانى أكثر من علة . فهى مجهدة متعبة ، لقدعبثت بها حرارة الصحراء وأتعبها بردها القارص ولرقة جسدها أصابها مرض ظاهر ، ومرضآخر خفى بدأ يهاجمها إذ تخيلت فى اعراض محمد عنها ما يعنى اقباله على عروسه الجديدة جويرية بنت الحارث ، وهى الغيورة شديدة الغيرة ، ولم تكن قد سمعت بقصة الافك : فكان أن طلبت من زوجها أن يسمح لها بالذهاب إلى بيت أبيها لأنها تحس وعكة وترجو أن تعنى أمها بتمريضها وسرعان ما أذن لها محمد عليه السلام بالذهاب إلى حيث أرادت دونتردد ، فضاعفت موافقته من ألمها ، لأن محمداً كان يكره بعدها عنه وطالما أحب أن تكون إلى جواره .. صرح لها محمد عليهالسلام بالذهاب وهو

يكتم ما فى نفسه ولعله أراد ذلك لحكمة ، حتى يخلو إلى نفسه وعساه مهتد إلى حل يخرجه من هذا الشك . وذهبت عائشة إلى بيت أبيها الصديق الذى كان يعانى من الطعنة الجريئة ما جعله بين عوامل عديدة وكان يشعر بعطف جارف على ابنته عائشة .

والرسول عليه السلام كان يدفعه إيمانه بالله ويقينه إلى عيادة عائشة فى بيت أبيها أكثر من مرة كى يطمئن عليها ويسأل على مضض قائلا : كيف تيكم !

وبرغم ما حدث راح المنافقون يرددون هذا الحديث وتولوا كبره فبالغوا فى روايته ، ولم يفكر واحد منهم فى مراعاة حرمة محمد عليه السلام ونسائه المطهرات . وظل الرسول صابراً على مضض لا يفعل شيئاً أكثر من أن يرفع إلى السماء يديه ويسأل ربه الهداية ويطلب الارشاد والتوفيق . ولم يكن أبو بكر الصديق بأقل من صاحبه وجداً وهما . وظلت عائشة مريضة فى بيت أبيها قرابة عشرين يوماً حتى نقهت ، وحدث أن خرجت مع امرأة من المهاجرين لقضاء بعض الحاجيات فعثرت المرأة فى مرطها وهما عائدتان إلى المنزل فقالت المرأة : تعس مسطح !

وقالت عائشة : بئس ـ لعمر الله ـ ما قلت فى رجل من المهاجرين شهد بدراً . فقالت لها المرأة :

ـ تدافعين عنه . . أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟

فأجابت عائشة بدهشة : وما الخبر !؟

فأخبرتها بحديث « أهل الافك » وما يذيعه مسطح وغيره من الناس عنها وعن تخلفها عن الركب وعودتها مع صفوان بن المعطل . وفهمت عائشة السر فى جفوة النبى صلى الله عليه وسلم اياها وغضبه منها فصاحت : أهو كان هذا ؟

وكاد يغمى عليها ، وعادت إلى البيت تبكى حتى شعرت بكبدها يتصدع وقلبها يكاد يتوقف عن خفقاته . وذهبت إلى أمها تقول لها والعبرات تخنقها : يغفر الله لك يا أماه !

وارتاعت الأم وأسرعت نحو ابنتها تضمها إلى صدرها وتسألها : ماذا يا ابنتى ؟ فقالت : تحدث الناس عنى بما تحدثوا دون أن تذكرى لى من ذلك شيئا ؟

وحاولت الأم أن تخفف عن ابنتها فقالت أى بنية ؟ هونى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثّرن وكثر الناس عليها !

ولم يرفه هذا الحديث عن عائشة ، بل زاد من حزنها وألمها فقد استعرضت تصرف زوجها محمد عليه السلام حيالها بعد غزوة بنى المصطلق وجفاؤه عليها ، وأنها الآن لترى الحقيقة واضحة . فحديث الافك هو الذى أفقدها حبه وحنانه فتجد أنه كان محقا فيما أبداه نحوها من جفاء . ولكن ماذا تفعل الآن ؟ وكيف تدفع عنها هذه التهمة الكاذبة وهى البريئة منها أمام الله ونفسها ؟

أما محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكن سكوته عن تصديق لما

قيل ، وإنما كان سكوت الصابر على البلاء حتى يأتيه أمر ربه .

ولكن لما كثر اللغط حوله ، واشتد عليه الأذى قام صلى الله عليه وسلم وجمع المسلمين وخطب فيهم قائلا :

« أيها الناس ، مابال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً . ويقولون ذلك عن رجل ماعلمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى »

فقال أسيد بن خضير : يارسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم وإن يكونوا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل لأن تضرب أعنـــــاقهم !

فرد عليه سعد بن عبادة يقول : كذبت لعمر الله يا ابن خضير لا تضرب أعناقهم . أما والله ماقلت هذه المقالة إلا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا .

فقال أسيد بن خضير : كذبت لعمر الله أنت يا ابن عبادة ولكنك منافق تجادل . واحتدم الجدل بينهما حتى كادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن تدخل الرسول بحكمته فقضى عليها قبل أن تحدث . ورأى النبي عليه السلام أن يتشاور مع خلصائه فى هذا الأمر ، فدعا إليه عليا بن أبى طالب وأسامة بن زيد وتحدث معهما فيما قاله الناس عن عائشة رضى الله عنها . فقال له أسامة : إنك لأعلم الناس بعائشة يا رسول الله ! وأن الناس تكذب ، وما عرفنا عنها إلا خيراً .

وأما على بن أبى طالب فإنه قال :

ـ يا رسول الله : إن النساء كثيرات وإنك لقادر على أن تستخلف غيرها وسل الجارية فإنها تصدقك

ودعيت الجارية فقام « على » فضربها وهو يقول :

ـ أصدقى رسول الله . وأجابت الجارية وقد آلمها الضرب :

والله ما أعلم إلا خيراً . ونفت عن عائشة مقالة السوء .

وسكت محمد عليه السلام والناس فى أمر سكوته شيع وأحزاب ، وأنه لينقل بصره فى البيت الذى خلا من بهجته ونوره ، ثم يعرج على أمهات المؤمنين يسألهن عن أختهن عائشة وما يعرفن عنها . لقد كان واثقاً بينه وبين نفسه ببراءتها ولكنه أراد أن يقطع الشك باليقين ، وراح يسأل زينب بنت جحش عن هذا الأمر وما تعرفه عنها فتقول :

ـ يا رسول الله ، احم سمعى وبصرى والله ما علمت عنها إلا كل خير . ثم يذهب ثانية فيسأل حفصة بنت عمر فتجيبه فى لهجة المؤمنة الواثقة :

ـ والله يا رسول الله ما رأيت عليها سوءاً قط .

ويستمر الرسول فى تساؤله ، حتى يخطر بباله أبو بكر صفيه ووالد زوجة المفترى عليها . ولكن كان الصديق أشد حزناً ووجوماً إزاء هذا الحدث الجلل .

ولم يجد النبي عليه السلام سوى صاحبه ووزيره الثانى عمر بن

الخطاب فيسأله رأيه ويجيب عمر فى قوة عرفت عنه وبلهجة حاسمة:
- تسألنى عن عائشة يا رسول الله ؟ وإنى بدورى أسألك من زوجك إياها ؟ وأجاب الرسول فى هدوء ودعة :
- الله تعالى . وهنا يقول عمر وقد وصل إلى هدفه :
- إذاً ، أفتظن أن الله قد خدعك ودلس عليك فيها ؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .

وأما عثمان بن عفان فلم يخرج جوابه عما قاله عمر رضى الله عنهما . وكان هذا الحادث فترة من فترات الامتحانات الرهيبة لجميع من سمعوه أو تولوا كبره أو نالهم منه ما نالهم وفتر الوحى مدة طويلة . وأرجف المرجفون وقد وجدوا فى هذا الفتور فرصتهم وشجعهم فازداد نشاطهم فى نفث سموم الافك والبهتان ، وإن كانت قلوبهم تحدثهم بالشر الذى سينالونه جميعاً لأنه ما من واحد منهم كان يعتقد السوء فى ظعينة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأن زعيم المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول يعلم فى قرارة نفسه أن عائشة بريئة ويعرف كثير من المرجفين مثله وينكرون الحق ويشيعون الباطل .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم الذى وقف أمام هذه الشائعات والحرج رابض الجأش واثقا بالله ، ولكن لم ينزل قرآن يقطع الشك باليقين ، فما كان منه إلا أن يواجه زوجته بنفسه ويطلب منها الاعتراف بالحق واتجه إليها ليسألها عن الحقيقة بنفسه .

ودخل عليها وعندها أبوها وامرأة من الأنصار ، وكانت عائشة تبكي والمرأة تبكي معها فلما رأته كفكفت دمعها .وجلس الرسول عليه السلام قبالتها وسألها :

ـ يا عائشة ! إنه قد كان ما بلغك من قول الناس . فاتق الله وان كنت قد قارفت سوءا مما يقولون فتوبي إلى الله ، إن الله إن الله يقبل التوبة من عباده . وما أن أتم كلمته حتى انحدر الدمع من عينيها ونظرت إلى أمها وأبيها كمن تستنجد بهما فلم يتكلما ، وإذ ذاك ثارت نفسها وصاحت بهما : ألا تجيبان ؟

فأجاب أبواها في استسلام : والله ما ندري بماذا نجيب ؟

فزاد نحيبها وعظم خطبها فالتفتت إلى النبي وقالت له :

والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم إني بريئة لأقولن ما لم يكن ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني !

ثم سكتت وسكت الجميع ، ثم عادت بعدها تقول :

ـ إنما أقول كما قال أبو يوسف :

« صبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وخيم السكون على البيت ومن فيه ، ولم يبرح محمد صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزل عليه الوحي فسجي بثوبه ووضعت له عائشة وسادة من أدم تحت رأسه وقد فزع الجميع إلا عائشة لأنها كانت تعرف أنها بريئة وأن الله لن يظلمها ولن يتركها .

أما أبواها فقد خشيا أن يأتى من الله تحقيق ما قاله الناس .

فلما استفاق محمد عليه السلام من عشيته جلس وهو يتصبب عرقا وجعل يزيله عن جبينه وهو يقول :

ـ أبشرى يا عائشة ، قد أنزل الله براءتك .

فصاحت عائشة بفرحة طاغية : الحمد لله .

وتلا ما أنزل عليه ، ثم خرج محمد إلى المسجد وتلا على المسلمين ما أنزل الله عليه من القرآن : «إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم . والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ... الى قوله : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم » العشر آيات (من ١٠ ـ ٢٠ من سورة النور) .

ثم أتبع هذه الآيات بما يقطع الشك باليقين والباطل بالحق ويفصل بالحق قضية فلم يذر فيها ما يعلقها فقال « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ، أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم »

فقد أمن الله سبحانه من نسب إليها الافك ومن أصابهم من هذه الفرية سوءا وهم الرسول عليه السلام وأهله وعائشة رضى الله عنها وأهلها وقطع القضية بالحكم بالبراءة بقوله « الخبيثات

للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » تأكيد قاطع بأن الطيور على أشكالها تقع . وأن محمدا عليه السلام الذى قال فيه أعداؤه « ماعهدنا عليه من كذب » ولقبوه بالأمين وهو النبي الرسول الموصوف بمحاسن الأخلاق وأطيبها والذى قال فيه رب العالمين « وأنك لعلى خلق عظيم » والذى كان يحتكم إليه المتخاصمون من أعدائه لوثوقهم بعدله وطهارة نفسه . فهو الذى لا يدخل نفسه الخبث أو الدنس أو الرجس وهو العف الطاهر . فلا تكون زوجته أو احدى زوجاته إلا عفيفة النفس طاهرة القلب طيبة حتى تقر فى بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام وحتى لا يأنف منه النـــــاس . وهو الذى قال فيه ربه الكريم « ولو كنت فظا غليظاً القلب لانفضوا من حولك » .

فهذا الزوج الكريم الطيب عظيم النفس لا تكون زوجاته جميعاً ومن بينهن عائشة الصديقة بنت الصديق إلا مؤمنات عفيفات طاهرات .

ويبث الله سبحانه فى قلوبهم جميعاً الرضى والاطمئنان فيقول « لهم مغفرة ورزق كريم » وهى العاقبة الحسنى والفردوس الأعلى

نزول قرآن لبراءة عائشة رضى الله عنها

نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم منجماً فى فترة من الزمن ليقرأه على الناس على مكث ويبين لهم ماعمى عليهم، قال تعالى: « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » ، فمنه ما نزل بمكة يجادل الكفار فى عقائدهم ويدعوهم للتوحيد . وكانت آياته قصارا يكثر فيها السجع ويكثر الزجر والتخويف من عذاب الله وغضبه . فمثلا فى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر وأن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر » فيها سجع كقرع الأجراس ، وتخويف من عذاب الله وإنذار بوقوع حادثة انشقاق القمر واقتراب يوم الحساب كأنه أصبح بين عشية وضحاها . وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى .

وأما الأسلوب الذى أتبع فى السور التى نزلت بالمدينة كان مخالفاً لسابقه من حيث طول الآيات وقلة السجع ، لأنه كان يعمل على اقامة دولة ونشر الدين ، وتكوين مجتمع سليم لتنشئة أمة قوية عزيزة الجانب متماسكة مطمئنة اختارها الله لدينه فى الأرض وهم الذين قال فيهم « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

والقرآن اتخذ أسلوباً سهلا سلساً لكل من تدبره ونبه عقله فأدركه . وهو من لغة العرب لم يخرج كلامه عن الألفاظ التى استعملوها فى تخاطبهم ، وله روح ومعان سامية جمعها فى تركيب جمله وحبك ألفاظه حتى أصبح يشمل كل العصور ، ويستطيع أن يعيش بين أهله ويعيش به أهله فى كل زمان ،ويطبق على كل المجتمعات وان اختلفوا فى طباعهم وعاداتهم وأقطارهم .

سورة النـــور :

وسورة النور جاءت بأسلوب جميل وجمعت معانى سامية وقد نزلت هذه السورة فى زمن حادث الافك . فبدأها بقوله تعالى « سورة أنزلناها » إشارة إلى أنها من عند الله سبحانه . وكل ماجاء من عند الله تعالى يقال فيه «أنزل» مثل قوله «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » . مع أن الحديد يستخرج من الأرض، وهو عطاء من الأعلى للأدنى فمن يعطى يده أعلا ممن يأخذ فابتداء السورة استفتاح بأن الله سبحانه أنزل من لدنه قرآنا يتلى على مر العصور . وأنه هو الذى يتولى الدفاع عن عائشة رضى الله عنها . وعائشة التى قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . فهو قد ائتمنها على نصف الدين ومنها تعلم الصحابة الرجال والنساء منهم أحكام الطهارة ، ومنها تعلموا وعرفوا خلق النبى عليه السلام مع أهل بيته . وهى تقول فيه « كان خلقه القرآن » .

ويقول الله سبحانه فى النبى وأزواجه « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » ويقول لهم فى آية أخرى : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا فهو يعظ نساء النبي صلى الله عليه وسلم بأن يتصونوا بالتقوى ويلزمنها فيظللن طاهرات تقيات والله يزيد المحسن احسانا . فهذا القول إخبار فى صورة الأمر . كأنه يريد أن يقول «طهروا أنفسكم » . وفى قول الله تعالى فى أول سورة النور «وفرضناها» أى فرض ما بين فى هذه السورة من الأحكام والحدود وأوجبها على المكلفين إلى آخر الدهر . فقد ذكر فى أول السورة أنواعا من الأحكام والحدود . وفى وسطها آداب الزيارة والمعاملة الحسنة وفى آخرها دلائل التوحيد ، ولكى يكون الدفاع الذى جاءت به سورة النور قانونا شاملا يظل فى الأرض يدافع عن الأعراض البريئة ويهيء المجتمعات لحياة أسمى وآمن ، ابتدأ باقامة الحد على من اقترف جريمة الزنا ، فبدأ الحد بجلد الزانى والزانية مائة جلدة كاملة لكل منها إذا لم يكونا قد تزوجا من قبل واشترط أن يشهد اقامة الحد طائفة من المؤمنين وهم ما بين العشرة والأربعين إن تيسر لزجر المجرم . فقال « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » ولفظ « واحد » الدال على المذكر للتغليب فالزنا حرام ومن الكبائر . وقد أوجب الله سبحانه المائة جلدة بكاملها حدا على الزانى والزنية اللذين لم يتزوجا

بخلاف حد القذف وشرب الخمر الذى حد فيه بثمانين جلدة على الفاعل وحده . وشرع الرجم على المحصن والمحصنة حتى الممات ونهى المؤمنين القائمين بالحد عن الرأفة فى التنفيذ وأن يؤذوهم حتى يشعروا بالعذاب وليكونوا عبرة لغيرهم فقالى « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ، فمن كان مؤمنا وقلبه يراقب الله ويتوقاه ، يخشاه فلا يتهاون فى اقامة الحد وقوله: « واليوم الآخر » إنذار بالعذاب لمن تهاون فى اقامة الحد فى الدنيا . ويحكى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن جلد ولد له زنا ، فمات ولده قبل تمام حد الجلد ، ولما أراد الصحابة الحضور منعه عن تمام الجلد أقسم أن يقيم حد الله بتمامه . وأتم المائة جلدة بتمامها على جثة ولده . ويقال ان عمر رأى فيما يرى النائم - أن ولده جاءه وقال له رحمك الله يا والدى كما رحمتنى - أى أن اقامة الحد على الزانى كفارة وله توبة .

ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الزوج ، أصرت رسالته على تقرير بشريته فقال الله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم » فلم تنزع الرسالة من قلبه عواطف البشر ولا جردته من وجدانهم فقد عصمه الله سبحانه من كل ما يشينه فى دينه فقال تعالى « والله يعصمك من الناس » وسماه أهله وأعداؤه الأمين واحتكموا إليه رغم عداوتهم اياه فقال الله فيهم « وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين » وأما فى أحوال دنياه فقد ذاق من حر الثكل فى بنيه وفداحة

المصاب فى خديجة وأبى طالب ، كما أصيب بكسر سنه فى غزوة أحد ومحنة الافك فى زوجته عائشة . فقد سبقت كلمة الله لرسوله « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

ونحن نرى فى محمد عليه السلام شخصيتين مندمجتين غير منفصلتين . شخصية محمد الرجل وشخصية محمد صلى الله عليه وسلم النبي الرسول . فلم يدع الله تعالى لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها كيف يشاء على نحو ما يفعل أى رجل من البشر . وإنما كان يتلقى من حين إلى حين أوامر ربه فى أخص الشئون الزوجية . وكانت علاقته بنسائه تخضع أحياناً لتوجيه سماوى صريح

فمحنة الافك لم يحسمها إلا نزول الوحى ببراءة عائشة مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة . وسلوك نساء النبي صلى الله عليه وسلم كان يخضع لرقابة مباشرة من السماء على نحو غير مألوف فى حياة غيرهن . والله يقول لهن « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى . وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله

والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً ، فهو يحدد موقفهن فى بيت النبوة ومسلكهن فى الحياة ويبين لهن ما يجب عليهن وما يراد بهن حتى يزغبن عن الدنيا ويقبلن اقبالا كلياً على طاعة الله ورسوله

وعائشة بنت الصديق أبى بكر رضى الله عنه الذى قال فيه الرسول عليه السلام « ما دعوت أحداً إلى الاسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة ما عكم - أى ما تلبث - حين ذكرته له وما تردد فيه » .
عرف عن أبى بكر أنه كان ذا شهرة ذائعة فى دماثة الخلق وحسن العشرة ولين الجانب . وكانت عائشة ابنته ذات لطف آسر وذكاء لماح وفصاحة فى اللسان وشجاعة فى القلب ، وقد عرفها محمد عليه السلام منذ طفولتها الباكرة وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية . وإذا رآها غاضبة وقف فى صفها وقال لأمها فى عتاب رقيق : يا أم رومان ألم أوصك بعائشة أن تحفظينى فيها

لم يفاجىء الله سبحانه النـــاس بالمؤاخذة والتأنيب لسوء ما ارتكبوا من الافك وما تقولوا فيه فيبرى للسيدة عائشة رضى الله عنها بل أنزل سورة بين فيها الحدود والأحكام وفرضها على الناس المؤمنين حتى يتذكروا ويعتبروا ولا يتعدوا حدوده فيكونون من الخاسرين . فبدأ بحد الزانى والزانية الغير محصنين وقال : الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة وابتدأ بالزانية لأن المرأة هى المادة التى منها نشأت تلك الجناية ، ولأنها

لو لم تطع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه ، لم يطمع فيها ولم يتمكن منها ، فلما كانت أصلا فى ذلك بدأ بذكرها .

وجاء فى الخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حدث عن أحد الثلاثة الذين لايدخلون الجنة ولايشمون رائحتها وأن ريحها ليشم على مسافة خمسين عاما وهى «كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، عليهن كأسنام البخت . الخ» . فهذه المرأة تزينت وتمايلت ففتنت الرجل وأوقعته فى ارتكاب الفحشاء والمنكر ، ولولا اجتذابها اياه لما فعل . لذلك بدىء بذكرها فى الآية .

وقوله «فاجلدوا» أمر بالجلد لكل من «الزانية» و«الزانى» ولا يقيمه إلا الحاكم أو ولى الأمر . والجلد ايذاء الجلد لأنه مصدر الشعور باللذة فيؤذى والجزاء من جنس العمل .

وأداة التعريف فى لفظى «الزانية» و «الزانى» . وقوله «لا تأخذكم بهما رأفة» لا ترحموهما ولا تعطلوا حدود الله ولا تتركوها للشفقة والرحمة ، وكذا لا تخففوا عنهم الضرب بالجلد فتكون لهم توبة ثم اتبعها بقوله «إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» للتهييج والتهاب الغضب لله تعالى ولدينه فلا يتركون اقامة الحد . فمن كان طبعه الإيمان شغل بأداء الواجب الدينى ، ورأفته إقامة حدود الله والعمل للتوبة ومرضاة الله .

ولما كان اتيان الذكر للأنثى من سنن الله الطبيعية ، فهو سبحانه وتعالى يقول «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

شعوباً وقبائل » . ويقول النبي عليه السلام « تناكحوا تناسلوا »
وطبعاً لا يكون النسل إلا من النكاح . واجتماع الذكر بالأنثى
فى الحلال وبما شرع الله من عقد بعد طلب اليد ، هو الطريق
المشروع المرضى عنه ولكن إذا أتى الرجل المرأة بغيرما أحل
الله فهو الجريمة النكراء ، وهذه الجريمة هى ما أطلق عليها « الزنا »
فالنكاح المحرم كما جاء فى الآية الكريمة لا يأتيه المؤمن فيقول
« وحرم ذلك على المؤمنين » . وهذا التحريم قضى به لما فيه من
مساوىء واختلاط الأنساب وانتساب الذرارى إلى غير آبائهم

ويقول الله تعالى « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة .
والزانية لاينكحها إلا زان أومشرك وحرم ذلك على المؤمنين »

فهذه الجريمة لا تحدث إلا بين اثنين من صفته الزنا والمشرك
سواء الرجل أو المرأة ، وعموم اللفظ يدل على أن الفاسق
الخبيث الذى من شأنه الزنا والفسق لايرغب فى نكاح الصوالح
من النساء وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله أو فى مشركة والفاسقة
الخبيثة لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ،
وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين وختمت
الآية بقوله « وحرم ذلك على المؤمنين » ذلك أن نكاح المؤمن
الزانية ورغبته فيها محرم عليه لما فيه من التشبه بالفساق وحضور
مواضع التهمة والتسبب لسوء المقالة فيه .

ثم انتقل إلى حكم آخر ، وهو حكم القذف فقال تعالى :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » .

والرمى هنا يقصد به الرمى بالزنا ، والرمى بالزنا الإدعاء على إحدى النساء بأنها زنت بأن يقول « أنت زانية » أو يقول « هذه امرأة زانية أو زنت » ومن الرمى بالزنا أن يقول الرامى « يا زانية » أو يدعى ويقول « يا فاجرة » أو أى لفظ يقصد به الاتهام بالجريمة . فيجب حده بالجلد ثمانين جلدة ومهما كان العدد من الذين رموا المحصنات يجلد كل قاذف منهم بالحد . ولما كانت التهمة لا تقام على المتهم إلى بالبينة والدليل ، فكذلك إن لم يأت الرامى الأجنبى بالشهود الأربعة يؤيدون قوله يقام عليه الحد . فإذا جاء بالشهود العدول لا يحد ، وفى هذا الوضع من القانون أدخل الشيخ محمد عبده عقوبة شاهد الزور فى القانون المدنى ولم تكن موجودة من قبل وجعل عقوبته السجن ستة شهور .

وفى الآية الكريمة زيد على حد القاذف بالجلد ، ألا تقبل شهادته أبداً لأنه اعتبر سفيهاً وسقط عدله ، فلا يؤتمن على الشهادة للغير وينبذه المجتمع . ثم وصفهم الله سبحانه فى ختام الآية بقوله: « وأولئك هم الفاسقون » .

قال مجاهد وعطاء بن أبى رباح وقتادة : قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر . وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة (أغناهم) ولكل

واحدة منهن علامة على بابها كعلامة البيطار لتعرف أنها زانية وكان لا يدخل عليها إلا زان أو مشرك . فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين ، وقالوا نتزوج بهن إلى أن يغنينا الله عنهن ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية بما يعرفهم أن الزوانى لا ينكحون إلا زانيات . وتلك الزانيات لا ينكحهن إلا أولئك الزوانى وأن نكاحهن حرم على المؤمنين

وقوله « الزانى لا ينكح إلا زانية » مسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والطالب بخلاف آية الحد التى يقول فيها : « الزانية والزانى فاجلدوا ... » قدمت الزانية لأن المرأة هى المادة فى الزنا وهى التى تقدم الأسباب والفتنة .

ولكن رحمة الله وسعت كل شىء وبابه للتوبة مفتوح ، فأتبعها بقوله « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » فيها توكيد لرحمة الله الكريم ومغفرته لمن تاب واستغفر لذنبه وأصلح فإنه لا يعد من الفاسقين بخلاف الشهادة لا تقبل أبداً حتى الممات . والله سبحانه لما ذكر احكام القذف للأجنبيات أعقبه بأحكام قذف الزوجات ، وطلب من الرجل الذى قذف زوجته اللعان لأنه قد لا يجد الشهود الأربعة فقال: « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين » .

قال ابن عباس رحمهما الله ، لما نزل قوله تعالى « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء » قال عاصم بن عدى الأنصارى إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته ، فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج . وان قتله قتل به ، وان قال وجدت فلاناً مع تلك المرأة ضرب وان سكت سكت على غيظ . اللهم افتح . فنزلت هذه الآية تبين للناس

ويقول الشافعى رضى الله عنه : إذا قذف الرجل زوجته فالواجب هو الحد والمخلص منه بالشهود . وذلك لأن قذف الأجنبية لا معرة على قاذفها فى ارتكابها الفاحشة ، ولكن زنا الزوجة يلحق بزوجها العار والنسب الفاسد .

والغالب أن الرجل لا يقصد بقذف زوجته إلا عن حقيقة والرمى يشهد بكونه صادقا . والشهادات الأربع تكفى عن الاتيان بالشهود الأربعة والتعقيب فى الآية بقوله « والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين » .

فلما كان القذف معرة يلحق بالمرأة وأهلها ، ويلحقه أيضا فإنه يدعو على نفسه باللعنة وهى الطرد من رحمة الله إن كان كاذباً ، فإذا سكتت الزوجة فهو اعتراف منها يقام الحد وترجم حتى تموت وتعتبر توبة . وان تلاعنت عفى عنها وتركت لحكم الله تعالى وهو العليم الخبير يقتص من الكاذب يوم القيامة . وجاء فى الخبر أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لهلال بن أمية

لما رمى زوجته بالزنا وقال « والله يعلم أنى لصادق » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إما البينة وإما اقامة الحد » . وبينا هم كذلك إذ نزل الوحى بآية اللعان . ودعيت زوجة هلال فكذبته فقال عليه السلام « أن أحدكما كاذب » وتلاعنا ثم فرق الرسول عليه الصلاة والسلام بينهما ، والمتلاعنان لا يجتمعان أبداً .

لما بين الله سبحانه وتعالى حكم الرامى للمحصنات والأزواج بعد أن بين حكم الزانى والزانية ، وكان فى ذلك من الرحمة والنعمة لأنه سبحانه جعل باللعان للمرء سبيلا إلى مراده وللمرأة سبيلا إلى دفع العذاب عن نفسها ، ولهما السبيل إلى التوبة والانابة ، فلأجل هذا بين الله تعالى بقوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته » عظم نعمه فيما بينه من هذه الأحكام وفيما أمهل وأبقى ومكن من التوبة . وحذف جواب « لولا » وتركه يدل على أنه أمر عظيم ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به .

فهو قد أكد الخبر فى حكمته فى قبول التوبة الصادقة لأنه حكيم خبير بالسرائر عليم بما تخفى الصدور ، يقبل التوبة بعلم ممن يشاء وهو أعلم بخلقه ، الصادق منهم والكاذب ولكون المعروف عن عائشة أم المؤمنين وزوج النبى الأمين عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، إنها طاهرة وفى عصمة الرسول المطهر والمبعوث رحمة للعالمين يدعوهم ويستعطفهم فوجب أن يكون شريفاً منزها عما تعافه الناس وتنفر منه . فكل ما يقال فى حقه وحق زوجته

يعتبر افكا وتضليلا لا يأتى إلا من منافق أو كافر ، لأن المؤمنين لا يظنون بأنفسهم إلا خيراً .

لما فشا بين أهل المدينة أقوال عن عائشة رضى الله عنها وتحدث الناس بما لا ينبغى نزلت الآية : « إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم . والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »

والافك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وهو البهتان وما أفك به على عائشة رضى الله عنها كذب وبهتان لكونها زوج النبى محمد عليه الصلاة والسلام وهو المعصوم . ولأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم فوجب ألا يكون معهم ما ينفر عنهم . فإنشاء ذلك الافك والبهتان ، وكشف كذب الأفاكين على مر الدهر بقرآن يتلى ، صار خيراً لمن قيل فيهم لما فيه من تشرفهم وبيان فضلهم ، حيث نزلت ثمان عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة رضى الله عنها . وشهد الله بكذب القاذفين ونسبهم إلى الافك وأوجب عليهم الذم واللعن فقال : « لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » اللفظ ، منهم دليل إن الذين جاءوا بالافك وتقولوا به انساقوا اجمعاً وراء ما سمعوا ووقعوا فى الأثم ، ولكن العذاب انصب على من اختلق هذا الافك وقال الزور ، وكان السبب فى وقوع غيره فى اساءة الظن بمن كان بريئا . والذى تولى

كبره عبد الله بن أبى بن سلول وكان منافقا ويقول الله فى المنافقين « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » وهو عذاب شديد ، ويحكى أن حسان بن ثابت فقد بصره وهو عذاب شديد فى الدنيا ولما ذكر الله سبحانه وتعالى حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بها من الآداب والزواجر فقال : « ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبين » .

فهو يلوم المؤمنين ويقول لهم ، كان الواجب إذ لما سمعوا قول القاذف أن يكذبوه ويشتغلوا باحسان الظن ولا يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة . وذكر ضمير الغائب الظاهر فى قوله « بأنفسهم » ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات وفى التصريح بلفظ الايمان لايجاب حصول الظن بالاحتراز عن المعصية وأن المسلمين لا يظنون إلا خيراً ولا يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة .

ويروى أن أبا أيوب الأنصارى رحمه الله دخل على امرأته وقال لها « ألا ترين ما يقال ؟ » فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءاً ؟ فقال لا . قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ماخنت رسول الله فعائشة خير منى وصفوان خير منك »

والله سبحانه وتعالى جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجرى عليها من الأمور ، فإذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم . فلو ظن كلهم خيراً وأحسنوا الظن بعائشة وبصفوان

لما انتشر هذا الافك وشاع ولما نزل فيه قرآن يبين براءتها وعفتها وعفة أخواتها المؤمنات زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ويبين فضل أبي بكر الصديق. فيقول الله تعالى « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ». وبعد أن بين أن المؤمنين كالنفس الواحدة وما يجب على النفس المؤمنة من حسن الظن بأختها. قال:

« لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ». ففيها زجر ومؤاخذة، وعود على ما بدأ به من أحكام القذف من ضرورة الاتيان بالبرهان والشهود الأربعة وقوله «إذ» يفيد الزمن فهم حين جاءوا بالافك وحين جاءوا به كان يأخذه البعض من البعض بالحكاية، وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول ما وراءك ؟ فيحدثه بحديث الافك. فهو قول بغير علم وكانوا يستصغرون ذلك القول وهو بهتان واثم عظيم.

قال تعالى في أدب الأخبار « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم بفاسق بنبأ، فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه وهو يعظه « يا بني لا تقل ما لا تعلم وأن قل ما تعلم ».

واتبع الله سبحانه هذا الزجر ببيان التأديب وتلقي الأخبار بحسن الظن فقال « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ».

لأن هذا الخبر كان سبباً لإيذاء عائشة وإيذاء أبويها ومن ومن يتصل بهم من غير سبب عرف أقدامهم عليه ولا جناية عرف صدورها عنهم . وبتقدير كون القائل كاذباً فإنه يستحق العقاب العظيم ، ومثل ذلك مما يقتضى صريح العقل الاحتراز منه إذ على العاقل إذا سمع القذف أن يسكت عنه وأن يجتهد فى الاحتراز عن الوقوع فيه .

وقوله « سبحانك » فيه تعجب مما حدث وتنزيه الله تعالى عن أن تكون زوجة نبيه فاجرة أو متهمة . وتنزيه عن أن يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترى عليهم . ثم يتبع ذلك بالآية « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » . فيها توجيه وارشاد وموعظة لمعرفة عظم الذنب الذى اقترفوه ووقعوا فيه وإن فيه الحد والنكال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، لكى لا يعودوا إلى مثله أبداً ويدخل فى هذه الموعظة من سمع فلم ينكر لأن حاله أصبح سواء مع من تكلم . والله عليم بكل المعلومات ويريد الإيمان من الكل فيظلوا مؤمنين ويظنون بأنفسهم خيراً . ثم ختم الآيات بقوله « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

لما بيّن الله سبحانه ما على أهل الإفك وما على من سمع منهم وما ينبغى أن يتمسكوا به من آداب الدين ليصلح مجتمعهم

ويصلح ذات بينهم أتبعه بقوله « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة » ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك فى هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره ، وهذا يتناول الحكم على كل من سب مؤمنة من المؤمنات سواء كانت عائشة أو غيرها . وفى الآية توكيد بالوعيد بعذاب من أحب اشاعة الفاحشة فى المؤمنين والمؤمنات ، وهذا العذاب فى الدنيا بالحد أو مصيبة وعذاب الآخرة هو النار . وختمت الآية بقوله « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالامارات لكن الله يعلم كل خافية ويعلم قدر الجزاء عليه .

ثم قال تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رءوف رحيم » . ذلك أن الله تعالى واسع الفضل والرحمة ولولا رحمته لهلك من سعى بالإفك أو لعذبهم واستأصلهم لكنه رءوف رحيم . فأمهل ومكن من التلافى فلم يهلكوا والله لرأفته يفعل الأصلح لعبيده وإن جنوا على أنفسهم وأتبع هذه الآية بقوله : يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم . ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله

غفور رحيم . إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة . ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين . الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين أولئك مبرءون مما يقولون ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

فالله سبحانه وتعالى يمن بفضله على من يشاء ولولا فضل الله وأنه رءوف رحيم لهلك أولو الإفك ومن أحب أن تشيع الفاحشة فى البريئين منها وخاصة السيدة عائشة رضى الله عنها . فبرحمته يخاطب المؤمنين وينهاهم أن يتبعوا آثار الشيطان ولا يسلكوا مسالكه فى الاصغاء إلى الإفك والتلقى من الغير وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا ، وبين لهم أن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ، وخص المؤمنين لأنهم لم يتبعوا الشيطان وليتشددوا فى ترك المعصية ، وأن الله يرضى برحمته على من يشاء وهو أعلم بخلقه فيزكى من يشاء لبلوغه الصلاح فى الدين ، لأنه عليم بكل شىء ولأنه سمع أقوال كل الناس وعلم ما تنطوى عليه نفوسهم من حب إفشاء الفاحشة واشاعتها . ثم أوعز إلى أبى بكر رضى الله عنه لما أخذته الغيرة على ابنته وزوج الرسول عليه الصلاة والسلام وأقسم أبو بكر ألا ينفق على مسطح وهو قريبه وموضع بره وأحد الذين جاءوا بالإفك ، فأوعز الله إليه

أن يكون عفواً صفوحاً لأن الله دافع عن عائشة ووعد الآثم بشديد العقاب . فقال تعالى : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » . ففرح أبو بكر وقال والله أحب أن يغفر لى ، وحمل العطاء إلى بيت مسطح ولم يمنعه ، وقد وصف الله أبا بكر بأنه من أولى السعة وعلو الشأن فى الدين وهذا تشجيع لأبى بكر ولطمأنته على طهر ابنته وبراءتها من كل ما نسب إليها ، ووعده الله بالمغفرة والرحمة وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« أفضل أخلاق المسلمين العفو » وقال عليه السلام « لا يكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه » . ثم ختم الآيات فى هذه القصة بالقول الفصل واعطاء كل ذى حق حقه ، فوعد الرامى باللعنة فى الدنيا والآخرة والعذاب العظيم ووصف السيدة عائشة رضى الله عنها بأحب الصفات لها هى وصواحبها زوجات النبى عليه الصلاة والسلام وسماهن « المحصنات الغافلات المؤمنات » وهو وصف لا يدع إلى الشك فى إحداهن . ودلل على عذاب القاذف فى حق عائشة هو عذاب الكافر وعذابه الطرد من رحمة الله فى الدنيا والوعيد الشديد فى الآخرة وجعل لهم شهداء من أنفسهم وهن ألسنتهم اللاتى تكلموا بها وأيديهم اللاتى أشاروا بها ، وأرجلهم التى

سعوا بها ليحكوا القصة إلى آخرين . فيحكون ما حدث ويقلن له « أنطقنا الذى أنطق كل شىء » فيخسأوا . ثم يقول الله تعالى أنه يجزيهم يوم القيامة الجزاء الذى يستحقونه ، لأن الله هو الحق الواضح الذى لا يأتيه الباطل . وبين الله أنه بفضله وكرمه على خلقه جمع بين عائشة ومحمد نبيه عليه السلام فقال الطيبين للطيبات كما بين فى ابتداء السورة أن الزنا محرم على المؤمنين ، وأن من صفته الزنا لا يرغب إلا فيمن كان من صفتها الزنا كما أنها لا ترغب فى مؤمن ، وأن الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة وكذلك الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك .

فالحمد لله أولا وأخيراً برأ عائشة وصواحبها المؤمنات الصالحات مما يقوله الناس ويخالف حقيقتهن فقال « أولئك مبرءون مما يقولون » ووعدهم وعداً حسناً فقال « لهم مغفرة ورزق كريم » هذا وعد للسيدة عائشة رضى الله عنها ولأبويها ولزوجها النبى عليه الصلاة والسلام ، قول لا يدع مجالا للشك فى طهارتهم جميعاً وعفتها وصلاحها . ووعد الجميع بالرزق الكريم وهو الجنة ورضوان الله ، وكذلك جمع الله رسوله على نساء عفيفات مؤمنات صالحات « أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم » .

ولم تكن حادثة عائشة بدعا فى الزمان أو على الأرض ، وسبقها من الرسل من رمى بالبهتان ، فرمى يوسف عليه السلام

مع امرأة العزيز فبرأه شاهد من أهلها ، ولما عاد من السجن قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق . وبرأ موسى عليه السلام من قول بنى اسرائيل بالحجر الذى ذهب بثوبه . وبرأ مريم بانطاق ولدها وهو فى المهد ، لما قال لها بعد ولادته « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » . ولما أشارت إليه قال لأهلها « إنى عبد الله أتانى الكتاب .

وهكذا يدافع الله عن الذين آمنوا والله ولى المتقين .

وقعة الجمـــل وخروج عائشة

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه أمويا من بنى أمية وكان سمحا طيبا متبتلا شغله دينه عن دنياه ودنيا الناس . وقد آثر بنى أمية فى الحكم وولاية الولايات فعزل من ولاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واستبدلهم بولاة من بنى أمية من ذوى قرباه دون النظر إلى دينهم وحسن رعايتهم للمسلمين فكان منهم الفسقة الذين آثروا حب الدنيا والاثراء دون النظر إلى الاصلاح والتعمير . فشكا أهل الأمصار من الملوك وخاصة من عبد الله بن أبى السرح والى مصر الذى قتل أحد رجال الشعب لأنه اشتكاه لأمير المؤمنين عثمان ، ومن الوليد بن عقبة أخ عثمان لأمه لأنه كان متهما بشرب الخمر والمجون وامتلأت المدينة بالشاكين . ووصلت أنباء الفتنة إلى أم المؤمنين عائشة رضى

الله عنها وهى فى بيتها بعيدة عن الناس وأمورهم ، وعز عليها أن يتحكم بنو مروان وبنو أمية فى أمور المسلمين ، وأنكرت على عثمان بعده عن أحوال رعيته ووجدت فيما قدمه أهل مصر من أدلة لادانة عبد الله بن أبى السرح ما يكفى لعزله ومحاكمته . وأحست أن من واجبها أن تتدخل بالنصيحة عسى أن يقبل ابن عفان شفاعتها وينقذ الموقف بعزل الفاسدين من الحكام . فأرسلت إلى عثمان بن عفان رسالة تنصحه فيها بعزل والى مصر ولكن لم تصله الرسالة ولم يعد لأم المؤمنين رد عليها .

وحدث أن طالب الشاكون بعزل والى مصر وولاية محمد ابن أبى بكر شقيق السيدة عائشة فخشى المروانيون والأمويون عودة بنى هاشم فى شخص محمد بن أبى بكر ومناوأة معاوية فى الشام فأرسلوا رسالة لا يعلم بها عثمان إلى والى مصر بتدبير قتل محمد بن أبى بكر قالوا فيها : « إذا أتاك محمد بن أبى بكر ومن معه فاحتل فى قتلهم وابطل كتابه وقر على عملك » .

وقد أثرت هذه الرسالة تأثيراً سيئا فى نفس عائشة والصحابة فلم تطق البقاء بالمدينة وخرجت إلى مكة تريد الحج وكان ذلك قبل قتل عثمان بعشرين يوما . ولما قضت مناسكها وعادت من حجها خبرت فى الطريق بقتل عثمان ، فأحزنها خبر مقتله وترحمت عليه . وقالت « رحمه الله وغفر له » ، وأثناء سيرها إلى المدينة علمت بمبايعة على بن أبى طالب وكان فى نفسها منه ألم دفين من

أثر حادث الافك يوم سمعت أنه حرض الرسول عليه السلام على طلاقها وقال : اتركها يا رسول الله ، إن النساء غيرها لكثيرات . فحز فى نفسها هذا الخبر والاشعار بالآلام السابقة الحزينة ، فطلبت أن تعود إلى بيتها بمكة البلد الحرام . وقالت ليس هناك فى المدينة مقامنا ولنعد إلى البلد الحرام . وكان أول الناس استغلالا للموقف هم بنو أمية وبعض الحاقدين على بنى هاشم أمثال طلحة والزبير . أما بنو أمية فقد عز عليهم أن يسلبهم الهاشميون وعلى رأسهم على بن أبى طالب مجـــداً أعطاهم اياه عثمان بن عفان فأرادوا الاحتفاظ بالملك والسلطان ، واتهموا عليا بالتحريض على قتل عثمان .

ولكن علياً بعد مبايعته عزل الولاة الذين ولاهم عثمان ، ومنهم عبد الله بن عامر والى اليمن الذى جاء بما جمعه من خراجها وقدمه إلى عائشة أم المؤمنين وهى فى بيتها ومعه طلحة والزبير .راحوا يغرونها بأن تخرج معهم إلى البصرة وأدخلوا فى روعها أنهم يفعلون ذلك رغبة فى إعزاز الإسلام وأن عليها أن تشترك معهم لمكانتها بين جميع المسلمين . وأرادت عائشة أن تشرك معها نساء النبى صلى الله عليه وسلم ليخرجن من بيتهن فى مكة إلى المدينة، ولكنهن عدلن لما عرفن أن وجهتها البصرة لا المدينة . والتف حول عائشة رضى الله عنها فئة من الحاقدين على بنى هاشم وعلى رأسهم على . وأخذوا يحملون فكرة الخروج على أمير المؤمنين

على ، والدعوة إلى جهاده وعزله . ولمكانة طلحة والزبير بين المسلمين منذ عهد الرسول عليه السلام ولما بيناه فى نفسيهما للمبايعة بالخلافة لهما هما الدافعان للتغرير بعائشة واقناعها بأن خروجها فيه الخير لهذه الأمة ولسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سبب خروج عائشة رضى الله عنها :

كان من أسباب خروج عائشة أم المؤمنين اثارة دم عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين واتهام على بن أبى طالب بأنه السبب فى قتله أو التحريض على قتله ، وتغرير طلحة والزبير للسيدة عائشة وإيهامها بأن خروجها للاصلاح بين الناس. وتقدم طلحة والزبير للسيدة عائشة لأن طلحة بن عبيد الله كان تيمياً من بنى تيم قوم أبى بكر الصديق والد عائشة وكان صديقاً لعثمان وكان من السابقين إلى الإسلام ، وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبلى بلاء حسناً ودافع عن النبى عليه السلام فى أحد دفاعاً حسناً وأصابه سهام فى أحُد حتى كان النبى عليه السلام يقول : من سره أن يرى رجلا يمشى على الأرض بعد أن قضى نحبه فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله . يريد أن طلحة أشرف على الموت يوم أحد فكان حكمه حكم الشهداء وكأن النبى عليه السلام أراد أن يلحق طلحة بمن استشهد من المسلمين يوم أحد . وكما اطمأن عثمان بعد أن بايعه بالخلافة طلحة بن عبيد الله ، ولما ظهر الخلاف على عثمان ، كان طلحة من

المسرعين إليه . ولما قتل عثمان ، كان طلحة من الذين عجبوا لحزن على بن أبى طالب على قتل عثمان . ثم خرج طلحة مع الزبير مطالبا بدم عثمان ناقضا بيعته لعلى بن أبى طالب .

أما الزبير بن العوام قريب النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو ابن عمته صفية بنت عبد المطلب وهو قريب من خديجة زوج النبى عليه السلام الأولى ، فهو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى أى أن خديجة رضى الله عنها عمته وهو قريب من أبى بكر الصديق لأنه تزوج ابنته أسماء أخت السيدة عائشة أم المؤمنين . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه حواريه ودعاه المسلمون حوارى رسول الله . وأوصى عثمان ثالث الخلفاء الراشدين إلى الزبير بن العوام ليكون خليفة من من بعده . والزبير هو البطل الفدائى الذى فتح على يديه حصن بابليون مما سهل فتح مصر ودخول الاسلام فيها .

وخرجت أم المؤمنين عائشة فى هودج أحاطوه لها بالحديد وجعلوا فيه مكاناً تستطيع أن ترى من خلاله ما يحدث وأحاط الجند بالجمل وغادروا المدينة إلى البصرة تاركين الشام لمعاوية ومن فيه . وبينما كانت عائشة رضى الله عنها بالطريق إلى البصرة إذ اعترضت ركبها كلاب تنبح عالياً فى مكان يقال له « ماء الحوأب » فتذكرت عند سماعها نباح الكلاب حديث رسول الله عليه السلام ذات يوم اجتمع بها مع صويحباتها زوجاته عليهن رضوان الله

فقال «كأنى بإحداكن قد نبحتها كلاب الحواب . فإياك أن تكونيها أنت يا حميراء» مشيراً إلى السيدة عائشة . فصرخت وسألت عن ذلك المكان فقيل لها «ماء الحواب» . قالت ماء الحواب ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! ! ردونى ! ! ردونى ! .

ثم ضربت بعيرها وهى تقول :

- أنا الله صاحبة كلاب الحواب ردونى ! ردونى ! ولم يعدم طلحة بن عبيد الله الحيلة وإذا به يجمع الأعراب ويسألهم على مسمع من السيدة عائشة رضى الله عنها . فيسأل ويقول : أنحن عند ماء الحواب ؟ فيجيبه الأعراب مؤكدين أنهم تركوها منذ أوائل الليل ، وأقسموا لها على صدق ما يقولون .

ولكن راع الرجال من الصحابة وكبار المجاهدين ورؤساء القبائل أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام الذين أقروا بيعة على بن أبى طالب للخلافة بعد عثمان بن عفان ، عادا ينقضانها فيخرجان بظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أمل الجيش الذى جمعه طلحة والزبير وصحب ركب السيدة عائشة مركزاً فى البصرة ، فخثوا المطايا ليصلوها ويخلعوا الامام على بن أبى طالب . ولما اقترب الجيش وعلى رأسه عائشة من البصرة ، خرج الناس جموعاً ليلقوا الجيش القادم ومن معه وكادت البصرة تخلوا من أهلها ليرحبوا بعائشة ومن معها من الصحابة القدماء ، وتكاثر الجمع وعلا عجيجهم وهرجهم وحاولت عائشة أن تجعل السكينة رائد هذا الجمع المتحمس دون جدوى

فهم بين صياح وتهليل وتكبير تدفعهم الحماسة التى أشعلتها رؤية موكب عائشة أم المؤمنين ظعينة الرسول عليه السلام وقالت عائشة بعد جهد لتهدئة هذه الجموع « أيها الناس . أيها الناس. إن لى عليكم حق الأمومة وحرمة الموعظة ، لا يتهمنى إلا من عصا ربه . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونحرى، وأنا إحدى نسائه فى الجنة أدخرنى ربى وسلمنى . وبى ميز بين منافقكم ومؤمنكم . ثم أبى ثالث ثلاثة من المؤمنين وثانى اثنين فى الغار . وأول من سمى صديقا . مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضيا عنه وطوقه طوق الأمامة . ثم اضطرب حبل الدين وأمسك أبى بطرفيه وزين له أفياء . فوهم النفاق وغاض نبع الردى وأنتم يومئذ جحظ العيون فأصلح الفاسد واستأصل دفين الداء حتى أعطن الوارد الصادر وعلى الناهل ، فقبضه الله واطئا على هامات النفاق ، مذكيا نار الحرب للمشركين وانتظمت بضاعتكم بحبله ثم ولى أمركم رجلا مرعيا واسع الصدر يقظان الليل فى نصرة الاسلام . فسلك مسلك سابقه وفرق شمل الفتنة وجعل أعضاءها جمع القرآن . ولرب سائل يسألنى عن مسيرى، لم ألتمس إثما ولم أول فتنة أوطئكموها . . أقول قولى هذا صدقا وعدلا واعذاراً وتعذيراً ، واسأل الله أن يصلى على محمد وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين .

ثم خرج عامل ابن أبى طالب أمير المؤمنين ومن معه إلى

عائشة ومن معها فحدث جدل وصخب وإذا بصوت أم المؤمنين يعلو مرة أخرى فسكت الناس وقالت : وكان الناس يتجنون على عثمان ويزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم . فننظر فى ذلك فنجده بريا وتقيا وفيا ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة وهم يحاولون غير ما يظهرون ، فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر ، إلا أنه مما ينبغى ولا ينبغى لكم غيره أخذ قتلة عثمان واقامة كتاب الله . « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » .

من هذا القول يتبين قصد عائشة وما تريده غير الإصلاح بين الناس والاحتكام إلى كتاب الله الكريم والقصاص من قتلة عثمان إذ النفس بالنفس . وقد انتهك القتلة حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام لأنهم لم يرعوا حرمة شهر ذى الحجة وهو من الأشهر الحرم . ولم يرعوا حرمة المدينة المنورة وتقصد الناس المتجنين الذين شكوا من عمال عثمان ، أهل البصرة وأهل مصر .

وقد كان لهذه الخطابة أثرها فى النفوس ، فألهبت الحماس فى بعض الرجال ، وأنكر البعض منهم خروج أم المؤمنين واشتراكها مع الخارجين ، واشتبكوا واستفحل الشر وغلبت القوم الأهواء . وكان لعلى بن أبى طالب أحد الرسل ويدعى عثمان بن حنيف حاضراً وهاجمه بعضهم وحبسوه ، ولكن لما

علمت السيدة عائشة بأمر حبسه أمرتهم أن يتركوه ليذهب إلى صاحبه على بن أبى طالب ويحدثه بما رأى ، وكيف أخفق فى معالجة حماس الناس وتهدئة ثورتهم . وجاءت الرسل لعلى من مكة تؤيد أن طلحة والزبير أعلنا أنهما أكرها على بيعة على بن أبى طالب والسيف فوق رأسيهما .

ولما علم على بن أبى طالب طالب بما أحدثته عائشة بخروجها ومن معها وحماسهم اغتم غما شديداً وعز عليه أن تعاديه جهاراً زوج ابن عمه وبنت صاحبه ، ونقض الزبير ابن عمته والصحابى طلحة البيعة لخلافته بعد عثمان وادعائهما أنهما أكرها على هذه البيعة بحد السيف . وترك على بن أبى طالب أمر القضاء على امارة معاوية بن أبى سفيان على الشام إلى حين ، ووجه وجهته برجاله إلى حيث الجمع الذين أحاطوا بهودج عائشة لرتق الخرق الذى قد يكون سبب الفرقة التى تدب بين المسلمين فيجعل منهم شيعاً وأحزاباً . وأراد على أن يحسم الأمر بخطته السياسية السلمية وهو فى قرارة نفسه يعلم أن طلحة والزبير اللذين قادا الجيش الذى صحب موكب السيدة عائشة لن يحارباه لما لهما من مكانة فى الاسلام .وخرج على رأس جيش من أربعة آلاف وأمر بالسير إلى الكوفة . ولما علمت عائشة بما حدث من على بن أبى طالب كتبت إلى أهل الكوفة بعدم مناصرته وطالبت بأن يكون كتاب الله هو الفصل والحكم فى قضيتهم ولكن حدث أن سبق كتابها رسولا على بن أبى طالب لاثارة أهلها وهما حسن بن على بن أبى طالب

وعمار بن ياسر واستطاعا أن ينجحا فى إثارة الناس ، فخرج من أهل الكوفة تسعة آلاف رجل لحقوا بعلى بن أبى طالب . واجتمع الجمع لعلى ولكنه لم يأخذ الأمر بالقوة والسرعة لأنه كان واثقاً من أن طلحة والزبير لن يحارباه والخارجين عليه لأنهما سبق أن بايعاه بالخلافة . فأرسل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد أهل الكوفة هو « القعقاع » . وذهب إلى أم المؤمنين ليعرف سر خروجها ويثنيها للعودة وعدم اثارة الفتنة أو لا تكون طرفاً فيها فأنصتت لقول رسول على بن أبى طالب وأحبت أن تتراجع لتحقن الدم الحرام ، وكرهت أن ترى بعينيها وهى أم المؤمنين مصارع المسلمين وأرسلت إلى طلحة والزبير اللذين أغرياها بالخروج لتستشيرهما للصلح مع على وعدم اثارة الناس للقتال .

ولكن رغم الهدوء الذى أنشأه القعقاع فى مشاوراته مع طلحة والزبير وأم المؤمنين وثنيهم عن قصدهم وعدم اثارة الفتنة بين المسلمين حتى رغبوا فى العودة إلى الوحدة وجمع الكلمة والبيعة لعلى بن أبى طالب وعدم الزج بالمسلمين فى ميدان القتال والتفرقة . واستحسن طلحة والزبير رأى سفير على بن أبى طالب وأقرته أم المؤمنين . وعاد القعقاع بما وصل إليه وأخبر على بن أبى طالب بذلك فاستبشر وسارع فى تأكيد ماتم الاتفاق عليه وسار إلى البصرة ليبرم المعاهدة التى وضع شروطها القعقاع مع الثلاثة .

ووسط موجة الفرح التى عمت الناس جميعاً ظهرت فرقة من

أهل الشر وأصحاب المطامع الذين عزعليهم أن تبوء سعاياتهم بالفشل فلا يجدوا لبضاعتهم سوقاً . فى هدوء الليل وجدت الفتنة مرتعها الخصيب . فبينما كان أهل البصرة الموالين لأم المؤمنين فى سمرهم ومرحهم ينتظرون استقرار الأمور وابرام المعاهدة بينهم وبين أمير المؤمنين ، إذ دهمهم السبئة بالسلاح وهم عزل منه . فكان الفزع والهرج والصياح . ووصل الخبر أمير المؤمنين علىّ فأخذ يتساءل عن الخبر متعجباً فسمع بعض السبئة يقول : أعملوا فيهم السلاح . فعز على أمير المؤمنين أن يرى هذا الهرج من يصالحهم وأن يخون الشيخان « طلحة والزبير » موقفهما بهذه السرعة ويتماديا فى حقدهما ، وعرف أنهما يريدان القتال ونكثا العهد ويأبيان الصلح . ولما سمع طلحة والزبير بالصيحات ورأيا القتال سألا عن الخبر فقيل لهما إن أهل الكوفة هاجموهم فحز فى نفسهما أن يكون أمير المؤمنين على غير رأى سفيره القعقاع ، وأنه قد غرر بهما وأحب أن يأخذهما على غرة ولا يريد الصلح هكذا ، رأى فريق أم المؤمنين أن على بن أبى طالب لم ينفذ ما طلبه سفيره ، وساء أمير المؤمنين أن تكون الهدنة التى أرادها الخارجون عليه على دخن وفساد .

وكانت عائشة فى إحدى البيوت فأقبل كعب بن سور إلى عائشة وقال لها أدركى القوم فقد أبوا إلا القتال ، لعل الله يصلح بك . فركبت عائشة وخرجت على رأس عسكرها فى هودجها المسوّر بالحديد وإلى جانبها طلحة والزبير فى سلاحهما .

وخرج على بن أبى طالب فى رجاله وفوارسه ووقف على بسيفه المسلول وقفة الحكيم المتزن من صاحبيه ومن معهما ، وآلمه أن يقاتل من وقف وإياهم جنباً إلى جنب فى سبيل الله ونصرة رسوله ، وخرج إلى الشيخين طلحة والزبير وقال لهما :

ـ لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ! ألم أكن أخا لكما فى دينكما ، تحرمان دمى وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكما دمى ؟ وأجاب طلحة : لقد ألبت على عثمان ! فقال على : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق . يا طلحة : تطالب بدم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان . يا طلحة : أجئت بعرس رسول الله عليه السلام وخبأت عرسك فى البيت . أما بايعتنى ؟ قال طلحة : بايعتك والسيف على عنق . فقال على للزبير : وأنت يازبير ما أخرجك؟ قال الزبير : أنت ! ولا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أولى به منا ! قال على : ألست تذكر يوم مررت ورسول الله فى بنى غنم تنظر إلىّ وأنت تقول : لا يدع ابن أبى طالب زهوه . فقال لك عليه السلام : إنه ليس بمزهو ولتقاتلنه وأنت ظالم له . وإذ ذاك قال لعلى اللهم نعم ! لو ذكرت هذا ما سرت مسيرى ، والله لا أقاتلك أبداً ! ثم عاد الزبير وذهب إلى أم المؤمنين وقال لها : ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى إلا موطنى هذا . وسألته أم المؤمنين عما انتوى أن يفعل فأخبرها إنه النكوص والعودة إلى المدينة . ورجع الزبير وتبعه أحد أهالى الكوفة حتى وصل وادى السباع وقد أخذته سنة من النوم

وهجم عليه هذا الكوفى وقطع رأسه وأرسلها إلى على بن أبى طالب الذى حزن وتألم ألما شديداً وقال لحاملها : أنذر قاتل الزبير بالنار . ودارت رحى الحرب بين الجيشين واستمرت فى رهبة ، ورأى طلحة أن واجبه أن يستمر فى نضاله حتى أصيب بسهم أودى بحياته . وهكذا سقط الشيخان ـ الزبير ثم طلحة وانتهت حياتهما ولكن الحرب ظلت على حالها وبقيت أم المؤمنين وحدها فى عسكرها . وبينما هى واقفة ويزداد الهرج وتسمع من كل جانب ، فقالت ماهذا ؟ فقالوا لها ضجة العسكر .

قالت : بخير أم بشر؟ قالوا بشر . وخشيت الصديقة استمرار المعركة وأحبت أن توقف انطلاق لهيبها ويسكن هرجها ولهيبها ولم تجد من حرضاها وقد ماتا قتيلين . ورأت أن تطلب رفع راية السلام والتسليم ، ولم تجد لإيقاف هذه النار المتأججة وتسكين النفوس الثائرة إلا أن تأمر أحد رجالها أن يرفع كتاب الله على سنان رمحه . ويتقدم الصفوف داعياً الفريقين إلى الاحتكام إليه . ولم يكد هذا الرجل أن يرفع المصحف على رمحه ويتقدم الصفوف حتى أسرع السبئة يعاودون القيام بدورهم الخطير وصوبوا إلى الرجل سهامهم فأصيب فى مقتله وسقط وسط الصفوف وعم الهرج من جديد ، وأسرع هؤلاء السبئة يرمون سهامهم فى كل مكان وتجرأ بعضهم أن يجعل هودج عائشة هدفاً لسهامهم . فارتفع صوتها صارخا ، ثم سألت الله داعية أن ينتقم لعثمان من قتلته . وضج الناس بالدعاء مرددين ما قالته عائشة

فسأل على قائلا ما الخبر ؟ فقيل له أن عائشة تدعو على قتلة عثمان

فقال على : اللهم العن قتلة عثمان . وتحمس الرجال وزاد الهرج والقتال وعسكر عائشة محيط بها يخشى أن يصيبها مكروه . ووجد على بن أبى طالب أن الحرب لن تنتهى ما دامت عائشة تتوسط المعركة فى هودجها . فأمر أحد رجاله ويدعى أعين بن ضبيعة ليعقر الجمل ، فهجم على جمل أم المؤمنين فعقره فسقط الجمل وكان لسقطته دوى وجلبة . ثم هجم على بن أبى طالب على الرجال ليفرقهم عن الهودج . وتقدم من الهودج محمد بن أبى بكر شقيق السيدة عائشة ليسألها فقال : جئت لأقول لك إن أمير المؤمنين يسأل هل أصابك سوء ؟ فأجابت : لم يصبنى إلا سهم لم يضرنى

وأمر على رضى الله عنه وقد انتهت وقعة الجمل أن يأخذ محمد بن أبى بكر أخته أم المؤمنين إلى بيت صفية بنت الحارث أم طلحة الطلحات لتستريح هناك من وعثاء الجهاد وعنائه .

وذهب أمير المؤمنين علىّ إلى السيدة عائشة واتفق معها على الخروج إلى بيتها فى المدينة المنورة فوافقت وجهزها وبعث معها من الرجال الذين خرجوا معها ودافعوا عنها وجعل أخاها محمد فى ركبها . وسار على بن أبى طالب معها أميالا ثم عاد وترك لحراسة ركبها فى الطريق سبعين فارساً مدججين بالسلاح من بنات البصرة فى أزياء الرجال . ولما وصلت عائشة إلى المدينة وعرفت حقيقة الحرس سجدت لله شاكرة وقالت :

ما زدت والله يا ابن أبى طالب إلا كرماً . وددت لو أنى لم أخرج وإنما قيل لى تخرجين فتصلحين بين الناس فكان ما كان

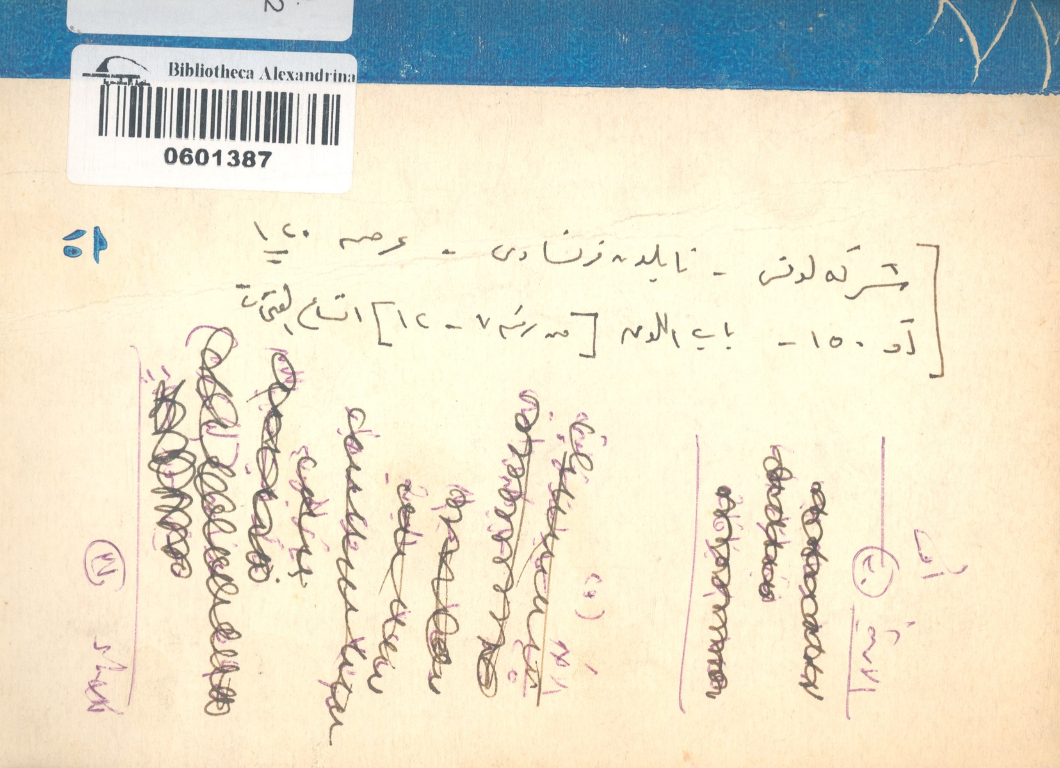
هكذا كانت أم المؤمنين غافلة لا تدرى من أمر هذه الفتنة شيئاً ولم تدبر أمراً . وكان خروجها فتنة أثارها طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام لأمر فى نفسيهما وهو الطمع فى الخلافة وتولى أمور المسلمين . وقد لقى حتفهما قتلا ، وعرفت أم المؤمنين فيما بعد تدبيرهما وأنها أخطأت بخروجها من بيتها حتى أنها طلبت عبد الله بن عمر بن الخطاب ذات يوم وقالت له: يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهانى عن مسيرى ؟

وأجابها عبد الله رأيت رجلا وقد غلب عليك - يقصد الزبير لقرابته . وظننت أنك لا تخالفين فقالت : أما انك لو نهيتنى ما خرجت

ومما يدلنا على أن عائشة رضى الله عنها غررت ولم تخرج إلا لتصلح بين الناس وتهدىء من هرج جيشين استعدا للقتال وهى لا تدرى من أمرها شيئاً إلا حين وقفت بهودجها بينهم . ولما أحست بالهرج والضجيج حاولت أن تجعل رائد الجمع السكينة والوقار فخطبت خطبتها التى أشرنا إليها سابقا .

وعادت أم المؤمنين إلى بيتها وقرت فيه لا تبرحه وعكفت على قراءة القرآن والتبتل حتى قضت نحبها ولحقت بالرفيق الأعلى .

والحمـــد لله ؟ نصر الله خليفة



Bibliotheca Alexandrina
0601387